# روفـــــان

دار دريم بن للطباعة والنشر
العنوان: مدينة العبور – الحي السادس، فيلا ٨، مدخل ١
هاتف: ١٠٠٣٢٨٨٥٩٦ (٠٠٢٠)
بريد إلكتروني: dream.pen92@gmail.com

---

روفان

---

ليلة حمادة محمد

الطبعة الأولى، القاهرة 2020م
غلاف: عمار جمال
تنسيق وإخراج داخلي:مهند يحي
رقم الإيداع: 2870 / 2020
I.S.B.N \ 978-977-6794-09-2

---

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًّا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

---

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبِّر عن رأي كاتبها، و لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

# روفان

رواية

ليلة حمادة محمد

# مقدمة وأمل

عالمُ الأحلامِ.. بوابةٌ لسيلٍ تتدفق فيها كلُّ مشاعرِ السعادةِ والأملِ لعالمٍ عميقٍ مليء بالحياة.. إنَّه هو الحياة.. ذلك العمقُ الساكن بأرواحِنا.. الآمن.. المطمئِن.. الذي لا يزحزحُه الضجيجُ ولا الألم.. لا يَبْلَى ولا يُنْسى.. ولا يتزعزع من عقارِه.. بل يزدادُ حياةً كلما هتفَتْ به الآلام.. ذلك الحيُّ العميقُ المستقر بالنفوسِ مهما تكاتفَتْ الأحزان.. الذي لا يبالي بالمناقشةِ ولا الجدال.. الباقي خالدًا محتلًا مكانةً تعلو أثناء الألمِ وتكبُرُ بالوجعِ ولا ينهار مهما زادَ الحطامُ.. فينمو كزرعةٍ من تحتِه كلما ثارَتْ الأوجاعُ.. فيزداد روعةً وجلالًا.

إن الأحلامَ لم تَكُنْ أبدًا سجنَ المساكين بل كانت مجدافًا في قاربٍ أحاطَتْه الأمواجُ والمتاعبُ.. علاجًا لسوسٍ ينخرُ بإيمانِنا.. رفيقًا صالحًا يشدُّ بنا مهما وسوسَتْ الشياطين.إن فاقدَ الحلمِ لمعدم.

تلك النفسُ الساكنةُ لك.. لا تخضعُ ولا تذل لمحتلٍ ولا لجسدٍ فالنفس بِكَ حرةٌ طليقةٌ تلهو مراقبةً الأملَ بعيونِ الثقة.. إنَّكَ تكسو عُريَ الواقعِ وخذل قوادِه.. فبِتْنا أشدَّ عزيمةً بكسوتِك.. وإنَّك لم تَكُنْ مخذلا ولا مهينًا يومًا.. بل كُنْتَ سلاحًا يشدُّ بنا بلا خوف.

إنَّنا نراكَ.. نلمسُكَ.. نتحسَّسُ معالِمَكَ.. إنَّكَ عالمٌ مضيء.. معالمُ براقة.. بساطٌ وثيرٌ.. زهورٌ متفتحةٌ تبتسمُ من بينِ العشبِ الرَطْبِ بالحديقةِ الواسعةِ.. إنَّكَ قلعةٌ تحمي خلفَها نفوسًا ذاقَتْ الخوفَ.. إنَّك الإيمانُ الذي يمُدُّنا بالقوةِ لحملِ الحجارةِ بكفوفِنا الرقيقةِ أمامَ المدافع.. إنَّكَ المحبوبُ فلا تفارقُنا.. إنَّنا نصبحُ ونمسي برفقتِكَ.. إنَّنا نعلو بِكَ هربًا من مرٍّ ذُقْناه من كفوفِ اللا مبالاة، فكانَ أشدَّ مرارةٍ ونحن نتجرَّعُه بيدِ المحتلِّ ومن خلفِه أعرابنا تشيحُ بظهورِهم ولو استدَرْنا إليهم.. كذلك بلا وجوه.. من دمائِنا يلهون.. « ونحن» هنا نسألُ:

– من هم؟!

أما «أنا» فمحتلٌ في بلادِ الحرية.

أنا شيخٌ.. أنا شابٌ.. أنا طفلٌ.. أتوسَّلُكَ لا تفارقْني.. إنَّكَ رفيقي في بلادِي.. ففي الصباحِ أرى فيكَ زهورًا تداعبُها الفراشاتُ وشمسُ النسيمِ بدفئِها لنا تلوِّنُ الماءَ بصورةٍ مرحةٍ خلابةٍ تلهو مع حشائشِ الأرضِ

الخضراء.. والسماء!! يا له من صفاء! وهكذا بِكَ أصبحَ المساء.. تتسابقُ النجومُ بالسماءِ وكلما ازدادَ السباقُ تشع بضحكتِها والقمرُ يقِفُ حاكمًا.. يا له من بدرٍ مكتمل السعادة! إنَّه السكونُ برفقتِكَ.

رجاءً لا تفارقْنا فإن غادرت لعادَ الحطامُ والخوفُ والهلعُ.. لاستقرَّ اليأسُ في أعماقِ نفوسِنا.. لخُفْنا من سياراتِهم ومدافعِهم.. لسقَطْنا إحباطًا مستسلمين وما استطَعْنا.. إنَّنا نحيا برفقتِك.. لقد أهانوكَ بالوهمِ ولكنَّكَ بيـــننا.

تقودُنا.

لولاكَ.. لهُزِمنا.

# الجنود الصغار

في مشهدٍ متكررٍ اعتادَ عليه سكانُ تلك المنطقة ببيتِ أمر بالخليل.

انتشرَ الهلعُ بينَهم عندما انطلقَتْ أصواتُ مدافعِ الجنودِ الصهاينة تهدِّدُ أرواحَ الشبابِ والأطفالِ الفلسطينيين الذين تصدوا لهم بحجارتِهم وجهًا لوجه، تصدي باهت بعين الوقاحة من الأعداء الذين اتخذناهم رفقاء من بعد نقض بالعهد.. باهتون بعقولنا.. ساقطون من عين الإدراك.. إننا لا نفقة شئ.. او هو درب من النفاق يدفعه الخوف لمصالح لن تنتهي ابدا ليتحرر سلاحاً كان يوما يسمي بالنخوه.. قوة انحدرت.. شجاعة خرت من ثقوب وهم السلام.. إننا العرب.. هنا.. وعلي جانبهم خلف نظارات سوداء لا تري.. إلا ما أرادت ، أو أمرت بخط عريض لا زحزحه عنه كحفظ ماء الوجه الباهت، كان بين هؤلاءِ

الشجعانِ فتى في العاشرةِ من عمرِهِ يلف وجهَه بوشاحٍ لتبرزَ عيناه الخضراوتان اللامعتان بالحماسِ وهو يحملُ لهم الأحجارَ في قميصِه وبينما هو يفعل انتبهَ لصوتِ صفير..

التفَتَ سريعًا فإذا هناك فتاةٌ بمثلِ عمرِهِ تشيرُ إليه بلَحاقِها.. كانت ذاتَ وجهٍ جميلٍ مبهجٍ بوجنتَيْنِ حمراوتين وضفيرةٍ طويلة.. تبعها إلى هناك فقالَتْ له سريعًا بحماسٍ طفولي:

– الحقْ بي سوف نباغتُهم الناحيةَ الأخرى.

نزعَ الوشاحَ من على وجهِه فبانَتْ ملامحُه الصبيانيّة الطاهرة وهو يهتف:

– لا سوف يصطادوننا بكلِّ سهولة!

همسَتْ:

– لن نكونَ على مرماهم.

أشارَ لها قائلًا متخذًا دورَ شابٍ كبير وهو كذلك بكيانه:

– روفان عليكِ العودةُ للمنزلِ الآن و...

قاطعَتْه كشابةٍ تحمل المسؤولية وهي بالفعل:

– إنَّهم يبحثون عن والدي.

أشارَ لها بالصمتِ سريعًا هامسًا :

– شششش.. ربما أحدهم يسمعُكِ وقتها سيعتقلونَكِ أنتِ إلى أن...

قاطعَتْه:

– لن يمسكوا بوالدي سوف تحميه المقاومة.

همسَ متوترًا:

– وأنتِ؟ ماذا سيحدث لكِ لو علمَ الصهاينةُ أنَّكِ ابنة (سالم يزن) الذين ينبشون المنطقةَ كلَّ يومٍ بحثًا عنه أظنُّهم سيحتفلون وأنتِ تفهمين يا روفان.

– لستُ أضعفَ من والدي يا فراس!

– اسمعي دعي والدَك يعملُ بلا تهديد.

وأضافَ بحماسٍ على نحوٍ جهادي:

– ثم إنَّكِ مسؤوليتُنا جميعًا مقابل ما يقدمُه والدُك.

قالَتْ بابتسامةٍ مستنكرة:

– أين سمعتَ هذا؟!

شعرَ بالحرجِ قليلًا فقالَ:

– ألسنا جنودًا نساعدُ بعضَنا؟

قالَتْ مؤكدةً بزهوٍ:

–بلى هؤلاء الحمير لا يعرفون قوَّتَنا، فنحن جنودٍ سنحررُها.

انطلقَ فجأه المدفعُ على قربٍ منهما فاختبآ وراء ركنٍ من الجدارِ المنهار أغلبُه.. ك احلام بريئة تحاول الصمود بارضها...

كانَتْ أصواتُ المدافعِ وسياراتِ الصهاينة بمثابةِ رعبٍ لأي طفلٍ يحملُ البراءةَ بين ضلوعِه، ولكن ليس لأطفالٍ ولدوا في أرضِ الجهادِ فباتَتْ مشاهدُ العنفِ بالنسبةِ لهم كمشاهدِ التلفزيون وأحداثِه لأطفالِ العالم الآخر فجمعوا ما بينَ البراءةِ والتعود على لغةِ الجهاد.. لغه اندثرت في مخبأها منذ مولدها.. فكان فراس من هؤلاء الأطفالِ الذين تطبعوا من أرضِها وباتوا لا يبالون بالفزع.. الهلع موطنهم.

وأردفَ متأمِّلًا غيرَ مبالٍ بالمدافعِ:

– عندما يتزوج والدُك من أختي نسيم ستعيشين بمنزلِنا أليس كذلك؟

قالَتْ ساخرةً:

– أليْسَ من المفترضِ أن تنتقلَ أختُك لمنزلِنا؟ ولكن على أساسِ وضعِ أبي أنا من ينتقلُ دومًا حسب الأوضاع، على كلٍ هذا إن تحرَّرْنا ووافقَ والدُكَ، ثم إنني أكثرُ ارتياحًا في منزلِ عمي (يس)، صحيح هو يعيق خروجي ويسألُني دومًا ولكني أصبحْتُ أستطيعُ توليَ الأمر.

قالَ مبتسمًا:

– وهل يستطيع أحدٌ إيقافَ (روفان يزن)!

بادلَتْه الابتسامةَ وقالَتْ:

– ما دمتَ أنتَ تعرفُني.. إذَنْ هيا لنفعلْ ما خططتُه فلن نجعلَ هؤلاء الكلاب ينعمون بيومٍ جيد.

وضربوا كفوفَهم ببعضِها وهتفوا: نحن جنودٌ سنحرِّرُها.

# الشيخ (يس)

وعلى نحوٍ آخر بنفسِ المنطقةِ داخلَ بيتٍ كبير..بسيط يتوسط حديقة غنية؛ يبدوا منها طيف أنثى، اعتنت فازهرت.... دخلَ شيخٌ كبيرٌ للمنزلِ وهو ينادي:

- يا أم (أقسم).

جاءت امرأةٌ وقورٌ من الداخل تلتف بخمارهِا لتجيب بلهفة :

- أجل يا شيخ (يس).

بدا كأنه اعتادَ الأمرَ وهو يقول ببساطةٍ:

- هناك اشتباكات بالخارجِ هل روفان هنا؟ إنهم يبحثون عن والدِها.

أجابت باهتمام وهي تقترب إليه بخطوات قلقه :

– لقد ذهبَتْ لمدرستِها، ولكن أخبرْني هل استطاعوا الوصولَ لشيء؟

جلسَ على أقربِ مقعد إليه يسترخي بتنهيده خرجت بهم مثقل لا نهاية له وهو يحدث نفسة مجيباً :

– إنهم صهاينة لن يرتاحوا إلا بعد أن يعتقلوه، سوف يستمرون في النحت إلى أن يصلوا، سيستمرون ولن يوفقهم أحد .

قالَتْ راجيةً:

– الله يساعدُه هو وإخوانَه من المقاومة.

قال متنحنحًا وهو يهز راسه وكأنه يستفيق من كابوس:

– الله يستر.

سألَتْه بلهفةٍ طلت من عينيها:

– كيف حال (أقسم)؟ هل يحدثك؟

أجابَها بجديةٍ لإنهاء الحديث وكأن أمرا اضجره :

– المهم أنَّه بخير، لا حاجةَ لأن يحدِّثَنا، وقولي لروفان لا داعي للقيامِ ببطولات يكفي أبوكِ.

قالَتْ بنفس نبرتها وهي تلمس كتفه ليستحث رجائها

– يا شيخ (يس) ومن لهم سوانا فسالم بن زوجة أبي وهو يأمن على ابنتِه عندَنا وواجبُنا أن نحرصَ عليها.

قال باسف ساخطاً:

– وهل أحتاج لدوافعَ لأُبقي روفان عندنا! هذا بيتُها الوحيد يا أم (أقسم)، فقط أنا لا أريدُ رؤيةَ وجوهِ الصهاينة ببيتي ونحن نسيرُ دربَ الحائطِ ولدينا ابنٌ غائب.

قالَتْ مختنقةً بعصبية:

– لقد أبعدتَه بخاطرِك، (أقسم) لم يَكُنْ يرغبُ بالعملِ بعيدًا.

هتفَ بحزمٍ:

– وهل أُبقي عليه هنا لأحملَ نعشَه؟

قالَتْ بخوفٍ:

– الله لا يقدر.

أردفَ بنفسِ حزمِه:

– بل هذا قدرُ كلِّ من يعيش هنا، لهذا علَّمْتُه ليجدَ مكانًا أكثرَ أمانًا من هنا، فلا ندري إلى متى سيظل اليهود يسيلون الدمَ ليجدوا سيد سالم يزن وغيرَه وابني الوحيد لن يكونَ كذلك.. أنتِ تخافين على ابنِ زوجةِ أبيكي بينما أنا أخافُ على ابني أكثر، ويجب أنتِ عليكِ ذلك، لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، لماذا تدفعيني لقولِ هذا!

وغادرَ لغرفتِه يجر نفسه حاملا عجز بات في خطواته واضحاً بينما ردَّدَتْ وهي تتحسس ضربات قلبها القلقة:

– الله يستر.. الله يستر.

# خوف وحب

وقفَ العجوزُ الأشيبُ عندما رأى تلك الجميلةَ ذاتَ العيونِ الخضراء التي تُطِلُّ منهما نظرةٌ هادئةٌ ساكنةٌ ميَّزَتْها وهي تهمُّ بالخروجِ من غرفتِها ليهتف:

-إلى أين يا نسيم في هذا الوقتِ الآن؟

التفتَتْ إليه بوجهِها الجميل الساكن وأجابتْه:

- عليّ الذهابُ الآن يا جدي، هناكَ أمرٌ طارئ.

سألَها في قلقٍ:

- أهو بشأنِ سالم؟

ازدادت ضربات قلبها ما بين الخوف والطرب لذكره فأجابَتْ في قلقٍ أكثر:

– أنا قلقةٌ يا جدي، إنهم يضعونَه برأسِهم.

قال الجدُّ بحماسٍ:

– لهذا أُحِبُّ هذا الرجل.

مطَّتْ شفتيْها الورديتَيْن وقالَتْ محبطةً:

– ولكن أبي لا يُحِبه.

أحسَّ بشيءٍ من الدلالِ الطفولي للتعبيرِ عن أسفِها فاقتربَ منها بخطواتِه البطيئة وقبّل جبينَها وقال:

– لا تقولي ذلك فسالم بطلُنا ولكن أباكي يخاف عليكِ ولا يستطيع تركَ ابنتِه الوحيدة من ثلاثِ زوجاتٍ أنجبن أحدَ عشرَ صبيًا هكذا، مهما بدا لكِ الأمرُ أنتِ زهرةُ أبيكي وحاولي تفهُّمَه يا نسيم.

قالَتْ في عنادٍ:

– ولأنني ابنتُه الوحيدة عليه أن يمنحَني ما أريد، لأنَّني مصرّة عليه.

استحث عنادها فربَّتَ عليها وقالَ:

– علينا أولًا الاطمئنان على ابن يزَن.

أومأت برأسها بابتسامة لا شك أنها الأجمل لذلك الوجة البشوش برغم قلقة ثم قبَّلَتْ يدَه واستأذنتْه لتنزلَ من أعلى ذلك الدَرَجِ الضخمِ بداخلِ هذا البيت الكبير المنسق.. بترتيب لا بأس به.. في بلده يحيطها الدمار.. انه بيت ثري.. انه كذلك . وهناك خرجَ رجلٌ في الخمسين من عمرِه من غرفة بالأسفلِ، علي جانب الدرج، تحرَّكَ بحيويةٍ لا تتناسب مع هيئتِه المهندمة وأوقفَها متسائلًا:

– إلى أين أنتِ ذاهبة يا نسيم روحي؟

توقفَتْ وقد تسللَ إليها التوترُ برغم دلال قوله ولكنها تطلعَتْ إليه وقالَتْ في هدوءٍ:

– لقد فوتُّ عملي بالذهاب للمدرسةِ اليوم بلا إذنٍ لأنَّكَ منعتَني ولهذا اتصلَتْ بي المديرة وقالَتْ إنَّه عليّ الحضور الآن قبل نهايةِ اليومِ الدراسي وحالًا.

قال في لهجةٍ آمرةٍ لا تخلو من الرأفةِ:

– لا لا تذهبي، ثم إنّي قلتُ لكِ مرارًا إن ابنةَ البراق لا تحتاج للعمل، ابقي بمنزلِكِ معززةً مكرمةً ودعي إخوانَكِ الصِّبيان يعملون، أنتِ ملكةُ هذا البيتِ يا نسيم وعليكِ أن تأمري فحسب.

قالَتْ متضجرةً:

– أبي أرجوكَ دعْنا لا نكرر هذه المناقشة، أنا أسعى لتعليمِ أبناءِ بلدي.. بلادُنا تحتاجُ لمن مثلي.

قال منزعجًا بنبرة يطوف بها التهكم

– أبناء بلادِكِ! دعكِ من هذا، أنا أعلمُ أسبابَ لهفتِك يا نسيم، ولكن اعلمي أنني من المستحيلِ أن أزوِّجَكِ من (سالم يزن).

قالَتْ منفعله بحالِ مقهورةً:

– لمَ؟ أليس سالم من الرجالِ الذين يدافعون عنا ونتشرَّفُ بهم!

هتف بحزمٍ:

– أجل هو من الرجالِ الذين نتشرف بهم، ولكن أزوِّجُه زهرةَ بيتي ابنتي الوحيدة! الفتاة التي يتمناها كلُّ شابٍ بالخليل! كيف يُعقَل! من مثل سالم لا يستطيعون تأمينَ حياة.. انظري لقد فعلَها مرةً وتزوَّجَ وفجروا له بيتَه وماتَتْ زوجتُه وأودعَ ابنتَه عند الشيخِ (يس) ولا أظنُّه يستطيع قضاءَ الوقتِ مع ابنتِه فكيف يفكر ببناءِ بيتٍ جديد وأنا بكلِّ بساطةٍ أسلمه ابنتي تُقتَل فيه! أنا أحترمُه وأقدرُه وتشرِّفُني معرفتُه ولكن تفهَّمي الوضع ولا تحرجيه بدوركِ.

قالَتْ بعنادٍ قولا واحدا:

– ولكننا متفقان ولو كان آخرَ شيءٍ أفعلُه يا أبي.. بعد إذنك.

وتركَتْه لتخرجَ وعند البابِ التفَتْ الصبيَّ فراس فسألَها هامسًا:

– أين البراق؟

قالَتْ مضجرةً وهي تبحث بحقيبتها عن شئ ما بعصبية دون ان تتطلع له:

– يشِعُّ بالداخل.

زفرَ الصبيُّ وهو يتجاوزُها ليكملَ طريقَه وهناك أوقفَه والدُه وسألَه:

– لمَ أتيتَ اليوم باكرًا؟ لم ينتهِ بعدُ الدوامُ المدرسي!

قال الصبيُّ باستعياءٍ:

– شعرتُ ببعضِ الدوارِ فأصرَّت عليّ المعلمةُ بالرحيلِ.

قال العجوزُ من أعلى في شكٍ وخبث عجوزاَ يدرك امراً:

– ما شأنُ الدوارِ برأسِكَ!؟ أيامٌ يؤخرُكَ وأيامٌ يعيدُكَ باكرًا أيها المجتهد.

مطَّ الصبي شفتيْه وقد عادَ لطبيعتِه دون استعياء قائلًا:

– لا أدري حسب الظروف.

سألَ والدُه سريعًا:

– أي ظروف؟!

استدركَ سريعًا:

– أعني الدروس.

اقتربَ منه ليحملَ عنه حقيبتَه وهو يقول:

– حسنًا هاتِ عنكَ حقيبتَكَ و.. لمَ هي ثقيلة؟!

تراجعَ عنه سريعًا وهو يلوح :

– إنها الدروس.. ألم تخبِرْكَ نسيم كم هو منهجنا ثقيل، سأذهب لأرتاح.. بعد إذنِكَ يا أبي.

وأسرعَ راكضًا لأعلى فتمتمَ الوالدُ في ضجرٍ:

– لمَ أصبرُ على أبناءِ (زهيرة)!

قال العجوز ضاحكاً وهو يتتبع فراساً:

– ربما لأنها زوجتُكَ الأخيرة.

شردَ للحظاتٍ ثم تنهَّدَ من أرجائِه ليتمتمَ في حزنٍ عميق:

– الله يرحمُها.

*****

يقولون ان الاقدر قد تتغير بالدعاء, بالتوسل,بالاصرار ,وهكذا كان حالها ....فخرجَتْ الجميلة نسيم من بيتِها وهي تتمتمُ بكلماتِ السخط والاعتراضِ فاتبعها جنديٌّ صهيوني بمجرد رؤيتها .

بدَتْ وكأنَّها اعتادَتْ الأمرَ لذلك استدارَتْ إليه في ضيقٍ وقالَتْ:

– ماذا تريد يا (إلخاموريل)؟

ابتسمَ لها بعيونِه الزرقاء الضيقةِ وقالَ بعربيةٍ متقنةٍ:

– أنا أحرسُكِ.

زفرَتْ ثم قالَتْ بكل ما تحمله من ضيق:

– ألمْ تمل يا (إلخا موريل) من ضربِ إخوتي لك؟ ولقد أقسموا هذه المرة على أخذِكَ كأسير.

ابتسمَ لها ابتسامةً ضاقَتْ لها عيناه أكثر وهو يقول:

– لا بأس فسأكون سعيدًا بقربِك محتجزًا وسأكونُ أسعدُ حين يعتقلوا إخوتَكِ ونظلُّ وحدَنا.

ابتسمَتْ ابتسامةً برقَتْ لها عيناها وهي تقول:

– جيد.. فلقد جاء أحدُهم من خلفِكَ.

توترَ بغتةً وهو يلتفت خلفَه سريعًا وبمجردِ أن عادَ يتطلعُ لها كانت قد ركبَتْ سيارةً وبدَتْ وكأنها خطفتها وأسرعَ يحاول اللحاقَ بها ولكن دخانُها أعمى عينيْه فجعلَه يسب بالعبريةِ في غضبٍ.

# نجمٌ من دماء

حين يختفي القمرُ تظلم السماءُ ويزدادُ الظلامُ عتمةً ولكن حينها تبدو النجومُ أكثرَ ظهورًا فتبرُق.. ومن بينِ كل النجومِ تكون هناك نجمةٌ أكثرَ تميزًا.. مشعةً أكثر.. تبدو أكبر..

تأمَّلَتْ ملامحَه الحازمة وشاربَه الذي زاد وجهَه شموخًا ونبرتَه التي أشعرَتْها بالأمانِ برغمِ وجودِهما في هذا الحطام وهو يسألها:

– ماذا كان يريدُ منكِ ذلك الجندي الصهيوني؟

قالَتْ بعيونٍ برقَتْ أكثر بنظراتِ الإعجابِ والهيام والشموخ:

– لقد كان يسألُني عنكَ فقلْتُ له إنني الوحيدةُ التي تستطيع رؤيتَك، بينما أنتم تبحثون عنه أنا ألتقيه في بيتِه القديم.

قال مبتسمًا:

– حقًا!

قالَتْ وقد تبللَتْ عيونُها هذه المرةِ ببريقِ العشق:

– أجل بالإضافةِ أنني اشتقتُ إليك.

سألَها سريعًا:

– كيف حالُ جدي ووالدِكِ وإخوتِكِ؟

أدركَتْ أنه يتهرب من قولِها ,قد يكون خجلا ..لا بأس ان يستحي الرجال في مواقف لا تتطلب شجاعتهم فقالَتْ بنفس هيامها:

إ – نَّهم يشتاقون إليكَ جميعًا.

دارَ في المكانِ وبدا حائرًا قبل أن يقولَ:

ا – سمعي، لقد أصبحَ لقاؤنا خطرًا فالصهاينة يبحثون عني و..

قاطعَتْه:

– ومنذ متى كفوا عن البحثِ عنكَ، سالم دعْكَ من قولِ هذا وقُلْ لي صراحةً أنَّكَ قابلْتَ والدي وبالتالي سأفهم فأنا علمتُ من قولِه لي بألا أحرجَكَ.

تطلع لها:

– هل تظنيني سأتخلَّى عنكِ؟

قالَتْ بشئ من الخوف :

– لا، ولكني أسألُكَ هل ستفعل؟

تأملها قليلاً ثم تقدم إليها وهو يردف بثبات:

– تعلمين من البدايةِ ما هي حياتي ولست متمردا بَل على العكس أنا أفضِّلُ ما أنا عليه.. أحاولُ بقدرِ الإمكان أن أدافعَ عن حقوقِنا وكسرَ شوكةِ الصهاينة.. وأنتِ تقدرين ذلك ومستوعبةٌ لحد لا يمكنني فيه ان ازيد شيئاً، ولقد مرَرْنا بالكثيرِ ومازلتِ متفهمةً لهذا ستتفهمين إن قلت لكِ ..

وتطلَّعَ لعينيْها مباشرةً وأضاف:

– تزوجيني.

اتسعت ابتسامتها شيئًا فشيئًا ثم قالَتْ بثقةٍ:

– علمتُ أن (سالم يزن) لا يخضع لأحد.

# صغيران وشيخ

سادَ الصمتُ كالعادة.. صمتٌ يتبعُه قلق..

قلقٌ في أيِّ لحظةٍ يتحول لضجيج..

ضجيجِ خوفٍ وارتياع.. من الحياةِ للموت.. وبين هذا القدر تسللَتْ الصغيرة روفان بحذرٍ لخارجِ المنزلِ وهي تتطلعُ لخلفِها و..

شهقَتْ بغتةً عند رؤيةِ الشيخِ (يس) أمامَها وهو يقول:

– إلى أين يا روفان؟

هل أحضرتِ الكتب؟

هتفَ الصبي فراس من خلفِه فتطلعا إليه فهتفَ مردفًا:

– لمَ تأخرتِ يا روفان! كل هذا لإحضارِ الكتب! لقد استأذنتُ والدي لساعةٍ لأذاكرَ بالحديقة معكِ.. الحديقة.

وشدَّدَ على كلمتِه الأخيرة فاستدركَتْ متفهمةً وهي تهتف:

– لقد أتيْتُ لأسألَكَ، هل علينا مذاكرة اللغة العربية أم الرياضيات؟

هتف:

– هل نسيتِ؟ سوف نذاكرُ الرياضيات لأجل الاختبارات..

وفكر قليلا وهو يضيف بتردد :غدًا.

رمقَهما الشيخ (يس) بنظرةِ شكٍ ثم قال:

– لا بأس، سوف تحضرُ الكتابَ ونجلسُ معًا ربما احتجتما شيئًا، فأنتما تعلمان أني كنتُ معلمَ رياضيات.

وهنا رمقَتْ فراسًا بنظرةٍ محنقةٍ بينما همسَ هو في إحباطٍ:

– حقًا!

وتمتمَتْ وهي بطريقِها لإحضارِ الكتابِ في حنق:

– سأقتلُكَ يا فراس.

سارَتْ نسيم بخطواتٍ متمايلةً في ذلك الزقاقِ بروحٍ ملأها الشوقُ والحماسُ وبدا كل شيءٍ يتحوَّل بعينيْها.. فهي ترى وكأنَّها تخطو على عشبٍ بحديقةٍ زينتُها الخضرةُ والورود والعصافير فباتَتْ تبتسمُ لعالمِها برأسِها.. هنا نهرٌ يجري ماؤه بجانبِ شجرةٌ ضخمةٍ لونُها أبيض والفراشات تحلقُ حولَها بذاتِ اللونِ فبدَتْ وكأنها أوراقَها كلما هزتها الرياح حلقَتْ.. وفتحَتْ ذراعَيْها لتحلقَ بينها و..

وردتي الذهبية.

تحولَ عالمِها بغتةً لصورةِ حطامٍ وضيقْ وحرٍ شديدٍ و(إلخاموريل).. أف.

واقعٌ استندَ فيه ذلك الصهيوني على أحدِ الأعمدةِ بطريقِها فبات وجهُها كأنها استفاقَتْ على كابوسٍ فتنهدَتْ باستياءٍ وتجاوزَتْه ولكنَّه راقبَها من مكانِه وهمس:

– حسنًا يا وردتي.

وبالمساءِ أمام بابِ الحديقةِ الخشبي بالخارجِ في منزلِ الشيخ (يس).

تطلعَتْ روفان لفراس في حنقٍ وهمسَتْ ثائرةً:

– لمَ تأخرتَ، ظننتكَ اعتُقِلْت.

وأضافَتْ مقلدةً زوجةَ الشيخِ (يس) على نحوٍ صادق:

– الله لا يقدر.

قالَ باستياءٍ طفولي:

– لم أَكُنْ سآتي، يكفي المرة السابقة اضطرِرْتُ لسماعِ كلَّ ما تعلمَه عم (يس) من أربعِ آلافِ عامٍ من وقتِ ما كان معلمًا.

عضَّتْ على أسنانِها وقالَتْ:

– كنتَ أنتَ السبب فلو لم تقُلْ لدينا اختبار كنْتُ سأتدبرُ الأمرَ.

قال حائرًا:

– أتساءلُ كيف تتدبرين الأمرَ مع العم (يس)! إنه يشكُّ بنا.. هل يراقبَنا؟

قالَتْ في عصبيةٍ:

– كفى..

وأسرعَتْ تتلفَّت حولَها في شكٍ وارتيابْ لقولِه.

ولكنَّها أشارَتْ إليه باتباعِها وجلسا متقرفصيْن بالقربِ من شجرةْ وسألَتْه هامسةً في حذرٍ:

– ماذا فعلْتَ اليوم مع عمِّكَ رشيد النصاب؟

همسَ بدورِه:

– يريدُ مالًا.

همسَتْ محنقةً:

– ذلك النصاب العجوز، ألم تخبرْه أننا سنقسطُ المال؟

قالَ:

– لم يتطلعْ لي وضربَني بمكنستِه عندما اقترحْتُ الأمرَ.. قلْتُ لكِ أسرقُ جدي وبعد ذلك أفكرُ بالاعترافِ له.

قالَتْ:

– سيبحثان خلف ذلك وحينها سيصل الأمرُ لعمي (يس)، وسوف ندمرُ الأمرَ برمَّته وسنفسدُ كلَّ شيءٍ بسقطةٍ، إذن علينا أن نجمعَ المالَ بأنفسِنا وبطريقةٍ شرعية.

زفرَ قائلًا:

– لا تقولي لي نعمل.

قالَتْ بثقةٍ:

– بل سنسرقُ اليهود.

هتف محبطًا:

– ليس مجددًا..

قالَتْ وهي تشير له بالهدوء:

– لا تقلقْ، هذه المرةُ تستحق.. هيا اذهبْ قبل أن يستيقظَ عمي (يس).

اومأ برأسه موافقاً ثم لوّح لها مغادرًاوهو يهمس :

– سأراكِ في الصباح.

وتابعَتْه إلى أن اختفى ثم دخلَتْ المنزلَ متسللةً في حذر.

# خطة.. وقرار

اشتدت حرارة الشمس فعكست اشعتها علي نافذة بيت البراق ولكن دفئها ظل خارجا يترقب فرصة للتسلل عله يستطيع ان يطرد سقيع دار بالمكان منتصرا ....

– نسيم.. أنا لن أتحدثَ في هذا الأمرِ مجددًا.

قال والدُها جملتَه في صرامةٍ جعلتَها تنفعلُ قائلةً:

– ولكنني اتخذْتُ قراري.

هتفَ بها وهو يهب واقفاً:

– أيُّ قرار.. أنتِ من عائلةِ البراق التي قتلَ منها اليهودُ أعدادًا وما زالت أكبرَ عائلةٍ بالخليلِ، ذلك الحي كلُّه لعائلتِنا وأنتِ بكلِّ بساطةٍ تستهينين بكلِّ هذا وتقولين أخذتِ قرارَكِ.

قالَتْ مندهشةً بعصبيةٍ:

– أبي أنتَ تصعِّبُ الأمرَ لا يُفْتَرَضُ أن يكونَ الزواجُ بشابٍ مثلَ (سالم يزن) صعبًا إلى هذا الحد!

حاول ان يتفاهم معها فغلف نبرته بالهدوء قائلاً:

– بل أنتِ من تصعِّبين الأمرَ عليّ، أنتِ ابنتي الوحيدة ولا أريدُ أن تتعرضي للخطر، تفهَّمي، سالم لن يستطيعَ العيشَ بأمانٍ طالما اليهود يقصدونه، إن كان نحن يقتلون منا ولم نفعلْ إليهم شيئًا فماذا عن سالم الذي يقاتلهم!

قالَتْ باصرار تستحث عطفه:

– ولهذا يجب أن نساندَه ولا نتخلى عنه لأنَّه...

قاطعَها بلهجةٍ آمرة وقد اكتفي :

– ستذهبين للأردن، لقد تقدمَ لكِ ابنُ شريكِنا بالأردن.

وعلى جانبٍ آخرٍ بنفسِ الوقت.

اختبأَ كلٌ من روفان وفراس خلفَ أحدِ الجدران في الحيّ الكبيرِ بالمنطقة والتي دعوها بحيّ البراقِ نسبةً لعائلةِ البراق التي تسكنُه أفرادُها وقال

فراسُ متوترًا:

– أكانَ يجب أن ننفذَ الخطَّةَ هنا؟

اجابت مترقبة:

– نحن في حيِّكم بين عائلتِك هنا، وجميعهم ينتشرون بالمكان اطمئنْ.

قال وهو يفرك كفيه بتوتر:

– هذه هي المشكلة، هل تظنيني أخافُ الصهاينةَ بقدرِ خوفي من إخوتي إن عَرِفوا أنّني لا أذهبُ للمدرسة وأقومُ بالاحتكاكِ بالصهاينة سيعلقونني مثل فخذِ الخروف عند الجزار.

قالَتْ:

– اسمعْ ما يحدث هو لصالحِنا.. لدينا هدفُنا وبالوقتِ ذاته تحمينا عائلتُك.

استوقفها:

– ولكني لا أريدُ إيذاءَ أحدْ من عائلتي.

زفرت بملل وهي تقول:

– ذلك الجبان موريل يعسكر بحيّكم ولا يجرؤ بمفردِه، دعْنا فقط ننفذ خطتنا.

وعلى نحوٍ آخر ليس ببعيد صرخَتْ نسيمُ باكيةً:

– أنا لن أترك فلسطين ولن أتزوجَ غيرَ سالم.

جاءَ للمكانِ شابان وهتفَ أحدُهما:

– ما الذي يجري ولمَ تبكين يا نسيم؟

قال الأبُ في حزم:

– لقد وافقْتُ على عرضِ (رافع الحداد) وستتزوج نسيم بالأردن.

انضمَّ شابٌ آخر –أكبرهم– وقال:

– ولكننا لن نفعلَ هذا يا أبي.

هتفَ آخر وهو قادمٌ من الخارجِ:

– ولمَ يا سيد أنس؟!

قالَ أنس:

– لأنَّنا سنزوجُها لـ(سالم بن يزن)، وهذا كلكُم تعلمونَه ولقد جاءَ إليكم..

قاطَعَه الآخرُ هاتفًا:

– ولكنَّنا لم نوافقْ.

قال أنسُ في حزمٍ:

– لا تقاطعْني، لقد جاءَ وكنْتم جميعًا موجودين، جاءَ برغمِ الحصارِ الذي يواجهُه لأجلِ قضيَّتِنا وحقِّنا المهدَرِ، جاءَ يطلب ما يحقُّ له ونحن لن نحرمَه من حقِّه كما اليهود يريدون.

قال أحدُ الإخوة:

– وكأنَّكَ تريد الاستغناءَ عنها!

استدار إليه وقبض على قميصِه وألقى نظرةً أخرسَتْه وهو يصيحُ فيه:

– أنا أخوكم الأكبر يا صالح ففَكِّرْ مرارًا قبل أن تنطقَ لي قولًا أحمقًا.

تدخل الآخرون وصاحَ أحدُهم:

– هل تريد ضربَ أخينا!

وتدخلَ آخرٌ قادمٌ من أعلى:

– ما بكم هل تتعاركون؟

تركَ قميصَ شقيقِه وقال:

– يريدون يا جعفر تزويجَ نسيم بالأردن.

هتفَ جعفر:

– ولكن نسيم مخطوبةٌ لابنِ يزن!

قال الذي قُبِض على قميصِه صالحا:

– ليست مخطوبةً لقد تقدمَ لها فقط.

وقال أحدُ الشابين:

– أجل ونحن لم نجِبْ.

قال جعفر:

– ما هذا القول، أيحتاج سالمٌ للتفكير! أنتم تعلمون من يكون سالم، البلدة كلُّها تتمنى أن تناسبَه، كما إنه صديقُنا يا أولاد البراق.

قال الشاب الآخر:

– لسنا مضطرين.

قاطعَه أنس:

– بل مضطرين، نحن رجالٌ وسالم تحدثَ إلينا كرجال ولا يفترض بنا كرجالٍ أن نزوجَ نسيم لرجلٍ آخر بينما هو يريدها.

كان يضغطُ بجملتِه على كلِّ كلمةِ «رجال» كرَّرَها في لوم.

صاحَ الأبُ بضعف:

– ابنتي ليست طلبًا!

قال جعفرُ هادئًا:

– تقدُّمُ سالم لها يُعلي شأنَها.

هتفَ صالح:

– فلنأخذْ برأيِ الأغلبية.

تدخلَ الجدُّ :

– كفى! لا أريدُ أيَّ قولٍ آخر، هل أختكم مقعد ستصوتون عليه؟!

وفي الوقتِ ذاتِه راقبَتْ روفان الطريقَ وعقدَتْ جبهتَها وهي تقول:

– لقد أتى (إلخا موريل) ولكن انظرْ ماذا يفعل عند منزلِكم!

تطلَّعَ فراسُ سريعًا وحدَّق مندهشاً:

– إنه يتصنت علينا!

قالَتْ تشرح ما تراه بترقب شديد :

– ها هو يبتعد.. والأستاذة نسيم تغادر.. إنَّه يتبعُها خلسةً.

وتطلعَتْ لفراس في هلعٍ وقالَتْ مكتشفة:

– ربما يراقبُها ليعتقلَها! علينا إيقافُه!

وأسرعا يركضان خلفهما.

بينما تسارعَتْ دموعُ نسيم ولم تستطِعْ منعَها وهي تسير بخطواتٍ سريعةٍ مضطربة بالطرقاتِ غير المأهولة كي تختبئَ بدموعِها وهناك اتبعَها الجندي خلسةً بينما هتفَ فراس من خلفِهما فجأةً:

– نسيم!

استدارَتْ وفوجِئَتْ بذلك الصهيوني خلفَها متسمرًا ومن خلفِه فراس فقالَتْ بعصبيةٍ:

– أنت؟!

# لا تتوسل

توقفَتْ نسيمُ تتطلع لـ(إلخا موريل) وأخيها فراس من خلفِه في تساؤلٍ وفجأةً اقتحمَتْ المكانَ روفان وقبضَتْ على قميصِ فراس وصاحَتْ غاضبةً:

– هل تتحامى بأختك أيها السارق؟

أسرع يختبئ خلف موريل فأسرعَت تضربه بحقيبتِها والتي وجدَتْ طريقَها في وجهِ موريل مباشرةً فصاحَ متألِّمًا هذا الأخير وهو يبعدهما عنه ولكن روفان صرخَتْ:

– لن تفلتَ مني.

بينما عاودَ فراس الاختباء خلف موريل ولكن هذا الأخير قبضَ على

ذراعِ روفان في عنفٍ وقال بعصبيةٍ:

– توقفي أيتها الحمقاء!

أسرعت نسيم تخَلِّصُها من قبضتِه ولكنه دفعَها وهتف بغضبٍ:

– سأُلَقِّنُها درسًا!

تطلعَتْ نسيم لفراس في لومٍ بينما روفان صرخت فيه بقوة:

– اتركْني!

بدا مُصِرًّا وجرَّها معه وهو يلوي ذراعَيْها خلف ظهرِها فدفعَ ذلك فراس ليتشبث به صائحًا:

– اتركْها!

صاحَ به الجندي غاضبًا:

– ستكون معها!

وتطلعَ لنسيم وأردفَ في شراسةٍ:

– المرةُ القادمةُ ستكونين أنتِ أو أخاكِ.

ترجَّتْه :

- أرجوكَ اتركْها.

دفعَ روفان أمامَه في عنفٍ وهو يهتف:

- لا.

في حينِ همَّ فراس يهاجمه لكن موريل أوقفَه بإشهارِ مدفعِه أمام وجهِه فأسرعَتْ نسيم تجذب أخاها وتطلعَتْ حولَها لتستنجدَ بأحدِهم ولكن الطريق كان خاليًا فعادَتْ تترجاه مجددًا:

- موريل دَعْها أرجوك.

ولكنه عاندَ أكثر برجائِها وطل من عينيه نظرة صهيونية خالصة وراح يحرك لسانة بطريقة مذرية كأنه جُنّ.. فبدا كوحش قذر الشكل يقبض بين انيابه علي حمامة تحاول التحليق ,واشتد الموقف ايذائا وكلاهما يقبض علي الطفلين باصرار بين صراعهما للتخلص ,و في هذه اللحظةِ الاكثر جنونا شهقَتْ نسيم بهلعٍ عندما أُفلتَ فراس منها وأسرعَ نحوه بذات اللحظة التي هم مغادراً قابضا عليها .. واستدارَ له الجندي سريعاً ليواجهَه..

نزلَ على ركبتيْه وقالَ مترجيًا:

- أرجوكَ اتركْها.

تأمَّلَتْ نسيم في دهشةٍ فهي للمرةِ الأولى ترى فراسًا متنازلًا وهنا صرخَتْ به روفان صرخة ثائرةً بجنـــــــــونٍ:

– لا تترجاااااه!

ولم تبالِ بقبضةِ الصهيوني العنيفةِ وصاحَتْ بثورةٍ أكبرَ وأعنف:

– قِفْ.. اتفقْنا ألا نركعَ للكلابِ أيها الأحمق!

لكنه لم يبالِ بصراخِها وتطلَّعَ لها وقالَ مهزوما:

– آسف..

وعاد يتطلع للجندي وقالَ متوسلاً:

– دَعْها أرجوك.

تدخلَتْ نسيم وقالَتْ للجندي:

– اتركْها ولن نعترضَ طريقَكَ.

تطلَّعَ لها كثيرًا وبدا كأنه توصَّلَ لفكرةٍ ثم ابتسمَ في زجل وحرَّرَها اخيراً، وهنا عدَّلَتْ روفان ملابسَها وهمَّتْ مغادرةً وهي تتجاوز الجميع بغضبٍ وفي طريقِها ضربَتْ فراسًا بحقيبتِها وهي تقولُ بسخطٍ:

- لا تحدثْني مجددًا.

شعرَ بالضيقِ فأحنى رأسَه أرضًا وجاءَتْ من خلفِه نسيم وضمَّتْه وهمسَتْ:

- لا بأس.. هيا للمنزل.

مالَ إليهما (إلخاموريل) وقال:

- لا تنْسَيْ معروفي وردتي الذهبية.

في حينِ أخذَتْ روفان طريقَها لمنزلِ الشيخ (يس) ركضًا وكأن الارض تتهاوي من تحتها وعندما وصلَتْ توقفَتْ عند بابِ المنزلِ بداخلِ حديقتِه الصغيرة وجفَّفَتْ دموعَها وكلما همَّتْ لتدخل أوقفَتْها دموعُها الغزيرة وعندما أحسَّتْ بأنَّ أحدَهم سيخرج أسرعَت والتفَّتْ خلف المنزلِ وهناك جلسَتْ تحت الحائطِ وبكَتْ بصوت مكتوم..

وفي الخارجِ.. استندَ فراسُ بوجه قاتمًا مذنبًا إلى السورِ لمنزلِ الشيخ (يس) ولم يستطعْ الدخولَ وظلَّ باقيًا لا يجرؤ علي الدخول تقيدة مشاعر الخذل فبات كدمية فقدت محركها والتقى به الشيخُ (يس) عند خروجِه وسألَه مهتمًا:

- فراس!! لمَ أنتَ جالسٌ هنا؟؟

واقتربَ منه في عطفٍ وأردف:

- ادخلْ بني.

شدَّ فراسُ قامتَه وقال مرتبكًا:

- لا عمي (يس).. سأذهب.

وانطلقَ يركض هاربًا ,وتابعَه الشيخُ (يس) في تساؤلٍ وتمتمَ في دهشةٍ:

- أين روفان؟!

# خصام ولكن

خرجَ الأطفالُ كعادتِهم راجين أن يحققوا علمًا في بلادٍ صعبَتْ فيها الحياةُ.. راجيةٌ عيونُ أهاليهم السماءَ توسلًا.. نظرةٌ ما بين السماء وبين ابتسامات رضاعهم ,وخوفٌ على آمالِهم كما الخوف على أطرافِهم أن تحيا إن خانَ المستعمر وفجر.. هذا إن رحمَ بهم ولم يقتلْ..

وساروا معًا ضاحكين.

هنا الأمل، هنا الحلمُ أن تبقى لي يد، أن تحيا لي قدمٌ.. هنا في بلادِ الجنةِ التي استعمرَها الألمُ.

خرجَ فراسُ يحملُ حقيبتَه وأوقفَتْه أختُه نسيم متسائلةً:

- إلى أين؟

أجابَها بنبرةٍ حزينة مستنكرة:

– ألا تعلمين؟!

عقدَتْ ذراعَيْها وألقَتْه بنظرةٍ أكثر استنكارًا فقالَ:

– أحملُ حقيبتي وأرتدي ملابسي ترى أين سأذهب؟

قالَتْ:

– هذا ما سألْتُه.. من المفترضِ أنَّكَ تحملُ حقيبتَكَ وترتدي ملابسَكَ للذهابِ للمدرسةِ، ولكنَّكَ يا أخي لا تفعل، أدري أنَّكَ وروفان لا تذهبان للمدرسةِ، وأمس غضبَتْ منكَ ولا أظنُّكُما اصطلحْتُما بسببِ هذا الوجهِ العابس، فإلى أين أنتَ الآن ذاهب؟

نظرَ إليها نظرةً غيرَ مباليةٍ وقالَ وهو يتجاوزها:

– تخيلي ..إلى المدرسة.

وتابعَتْه هي بابتسامةٍ شاردة..

بينما سارَتْ روفان في طريقِها إلى المدرسة.. كانت تتطلع للطريقِ في حيرةٍ فهي تسير كلَّ يومٍ في هذا الاتجاه ولكنها تدري إلى أين واليوم تسيرُ حائرةً تضربُ حصى الأرضِ بقدمِها ومن خلفِها كان فراسُ يتبعُها

كنصفِ جزئِها الحائر.. وتوقفَتْ في ضيقٍ وهزَّتْ رأسَها وقد اتخذَتْ قرارَها بالعودةِ واستدارَتْ وهناك أسرعَ فراسُ يختبئُ ولكنَّها التقطَتْه فضاقَتْ عيناها وتطلعَتْ أمامها مجددًا وأكملَتْ طريقَها بينما عادَ هو ليسير خلفَها..

سارَتْ بشيءٍ من الاستقرار، وبابتسامةٍ هزَّتْ رأسَها بعنادٍ طفوليٍّ لتلاشيها.. وعادَتْ تضربُ الحصى بقدمِها ومن خلفِها فعلَ فراس مثلها..

# ليت العالم كقلبِ طفل

دخلَ التلاميذُ فصولَهم وبدأوا دوامَهم بينما ما زالت روفان ومن خلفِها فراس يسيرون بالطرقات.. مروا بالسوقِ وهناك هتفَ بهم أحدُ أصحابِ المحلاتِ:

– لمَ أنتُم خارج المدرسة إلى الآن، ألم يهدِكم اللهُ بعد؟

ردَّ علَيْه أحدُ الرجالِ يشتري منه:

– هذان لن يذهبا للمدرسةِ حتى يحرّرا فلسطين.. هكذا قالا للجميعِ.

تابعَهما البائعُ بنظرةٍ حزينةٍ صامتة انتهَتْ بتنهيدةٍ خرجَتْ بكلماتِه:

– لعل اعتراضَهم يحرّرُها.

وأمامَ المقهى توقفَ أحدُ الرجالِ عن الضحكِ وهو يتطلع لهما في تساؤلٍ ودهشةٍ لفراقِهما كما لو أنه لم يعتَدْ هذا.

ظلّا حتى انتهاءِ اليومِ الدراسي على هذا الحالِ.. وهناك وهما عائدان قابلَ فراس ذلك الصبي المتنمر (عمران) طل الضيق من وجه فراس فبدا لا يطيقُه وتحاشى النظرَ إليه وكذلك الصبي الذي تصدَّرَ له طريقَه وقال ساخرًا:

– سمعتُ بما حدثَ معكَ أمس أيها الفارسُ الشجاع.

توقفَتْ روفان واستدارَتْ إليه هاتفة بتهديد:

– هل تريد العراكَ يا عمران؟

قالَ بنفس سخريته :

– أنتُما لا تيأسان من العراكِ معَنا بينما تتوسلان اليهود.. تظنَّان ألم يرَكُما أحد.

وأردفَ يقلدُ بطريقةٍ استفزازيةٍ:

– أرجوك أرجوك.

أشاحَ فراس بوجهِه عنه وتطلعَ لروفان نظرة واحدة انتقلت بينهما

وانتهت منها للصبي فقالَتْ بعدها واثقة وكأنها ستعلمُه أمرًا مؤكدًا:

– سنضربُكَ.

وبالفعل.. بلحظة واحدة هجمَ الاثنان عليه والتفَّ حولَهما التلاميذُ وجاءَ صبيّان كبيران يركضان نحوهما وعندما التقطَتْهُما أعينُ فراس صاحَ بصرخةٍ:

– إخوته جاءوا.

وهنا فرَّ الاثنان ومن ورائِهما ركضَ الصبيّان وهما يطلِقان السبابَ والوعيد..

كان مشهدُ الصبيّين الغاضبين يثيرُ الرعبَ ولكن فراس وروفان معتادين ففرّا سريعًا وبلا ترددٍ فما أثَّر مشهد الصبيّين الغاضب على همتِهما، وركضا بالأسواقِ بين الناسِ وهناك نفس الرجلِ ذي النظرةِ المتسائلةِ يبتسم لرؤيتِهما يركضان معًا وقد عادت الصورةُ لطبيعتِها، وهناك بين الزحامِ أشارَ لهما صاحبُ محلِّ الأقمشةِ بالاختباءِ سريعاً بمجرد رؤيتِهما.. فرَّ عقلُ الصبيان حين اختفيا فجأة منهما وصاحَ أحدهما:

– سنمسك بكما.أقسم سامزقكما.

وهتفَ الآخر:

– لنلحقْ بهما في هذا الاتجاه.

وعادا يكملان ركضهما وهما يطلقان السباب والوعيد.

رفعَ التاجرُ القماشَ المنسدل على منضدتِه وتطلَّعَ لهما وقال:

– أنتما، متى ستكفان عن هذا؟!

أشارَتْ له روفان هامسةً:

– هل ذهبا؟

انحنى على ركبتَيْه وقال:

– أنتما صغيران على هذه الأفعال، دومًا تركضان يا إما من الجنودِ الصهاينة أو من أبناءِ الياقوت، إنني استقبلُكما في محلي أكثر مما أستقبلُ زبائن، يومًا ما سأُعْتَقَلُ أو أُقتَلُ بسببِكما.

قالَ فراس وهو يختلس النظر:

– لا عليكَ عم (تميم) نعتذر.

قالَتْ روفان بعنادٍ:

– قلْ له يا عمي (تميم) ألا يعتذرَ بالنيابةِ عني لأنني لا أحادثُه.

قال العمُّ تميم مندهشًا:

– تفتعلان المشاكلَ معًا وأنتما متخاصمان!!

وأمسكَهما من حقيبتيهما وقال:

– لا تجديان من حملِ هذه سوى المتاعب.

خرجَ فراس من تحت الطاولةِ وقال معلنا بشجاعة:

– أختبئُ اليومَ تحتَ طاولتِك عم (تميم) ولكن يومًا ما سأكبرُ وسألقنُ أبناءَ الياقوت درسًا.

ربَّتَ عليه العم تميم وقال مستنكرًا:

– ألن تطردَ الصهاينة؟

رمقة فراس نظره متعجبة من سؤاله ثم الحقها بقول :

– سأكونُ طردْتُهم وبدأْتُ بتصفيةِ حساباتي.

ضحكَ العمُّ (تميم) وتطلع لروفان وسألَها:

– وأنتِ ماذا ستفعلين؟

خرجَتْ من مكانِها وقالَتْ في تهكم:

– يظن أنه سيفعل هذا بمفردِه.

تحولَتْ ضحكتُه الصغيرةُ لضحكةٍ أعلى وأوسع وهو يستدركُ آمالَهما وقدرَ تصديقِهما على فعلِها وتابعَهما وهما يخرجان سويًا بدونِ أن يتحدثا إلا أن كلا منهما يرمقُ الآخرَ بنظرةٍ طفوليةٍ عنيدة.

# إصرار

(القلـوب التـي تُحـب بصـدق هـي قلـوب مشـتعلة للابـد
فمـا مـن احـدًا قـادر علـي اطفـاء قلـب مُحب,مهمـا ابـدع
بالفـراق ..لـن تخمـد ,,سـتزداد القلـوب التهابًـا)

- زفافُكِ الأسبوع القادم.

قال (البراق) جملتَه في حزمٍ فاستدارَتْ نسيم عاقدةً جبهتَها وقالَتْ:

- ماذا؟؟

لم يتطلعْ لها وأردفَ وهو يتخذُ مقعدًا:

- سنعقدُ القرانَ وستسافرين معه للأردنِ و...

أسكتتْه نظرتُها وهي تتوقف عندَه فتوقفَ للحظاتٍ ثم عادَ يكملُ

متجاوزًا نظراتِها:

– سأقيمُ لكِ زفافًا (بيت أمر) كلها سترقص فيه بل الخليل كلها.. وسأقيمُ مأدبةً كبيرةً وسأدعو المئات و...

نزلَتْ على ركبتيها وأمسكَتْ يدَه وتطلعَتْ لعينيْه طويلًا وقالَتْ:

– كل هذا على روحي.

فتح فاه مندهشًا من قولِها وتابعَها وهي تتركه مغادرةً بخطوات عنيدةٍ مليئة بإصرارٍ كان يدركُه.

# لقاء واشتياق

كانَتْ الثانية والنصف صباحًا عندما فتحَتْ نافذتَها سريعًا وابتسمَتْ هامسةً:

- أبي.

ضمَّ سالم وجهَها براحتيْه وقبَّل وجنتيْها وقالَ:

- حمامتي المحلِّقة.. اشتقتُ إليكِ.

تعلقَّتْ برقبتِه وهمسَتْ له:

- اشتقْتُ إليكَ أكثر يا أبي أنتَ لم تعدْ تأتي كثيرًا وأنا لا أستطيعُ البحثَ عنكَ، ما رأيُكَ لو أخذْتَني معك.. أنا جندي قوي.

تطلعَ لوجهِها الطفولي وقال:

– أدري أنتِ وفراس جنديان شجاعان ستحرران الوطن.

قالَتْ بعنادٍ:

– لن نستطيعَ تحريرَه في هذا الوقتِ لأنَّنا متخاصمان.

حدَّقَ مندهشًا ليدلِّلَ على اهتمامِه وكأنه أمرٌ جلل وقال:

– حقًا!! ولمْ؟

همَّت لتخبرَه ولكنّها تراجعَتْ :

– لا يمكنُني أن أخبرَك.

ولوَّحَتْ عسكريًا:

– لا يمكنني خيانةَ جنديٍ معي.

ابتسمَ وعاد يقبّلها باشتياق مداعبًا لها:

– أشتاقُ دومًا لرائحةِ طفلتي الجميلة.

قالَتْ آملةً وهي تضمه :

– حين نحررُ الوطنَ سنأخذُ بيتًا كبيرًا في الاتجاه الآخر خلف الجدارِ ولن نبنيَ فيه جدرانَ حتى تراني دومًا وأراكَ.

ربَّتَ عليها وهمسَ لها واثقًا:

– سنفعل.

ثم عادَ يداعبُها بقولِه:

– لقد أصبحَ شعرُكِ أطول.

أمسكَتْ ضفيرتَها الطويلة لتؤكدَ قولَه وهي تجيب:

– أجل.. أنتَ تحب شعري الطويل، والدتي كانت كذلك كما قلت.. هل لازلتَ تبحث لي عن صورةٍ لها، هل وجدتَ؟ أريدُ معرفةَ شكلِها، فراس كذلك لم يرَ أمَّه لكنه يملك صورتَها.

بدا متأثرًا من قولِها فكانت أذكى وأسرعَتْ مستدركةً بأسف:

– لا بأسَ أبي عندما أحررُ أرضَنا سأحرقُ كلَّ صورِهم هنا، لن نتركَ لهم أيَّ ذكرى.

قبَّل جبهتَها مودعًا وهو يقول:

– سأعودُ لرؤيتِكِ قريبًا، ألقي السلامَ عني للشيخ (يس) وعمتي وبروج.

همَّ ليغادرَ ولكنها تشبثتْ بقميصِه فتطلَّعَ لها فقالَتْ:

- متى قريبًا؟

فكرَ قليلًا ثم ابتسمَ لها وقالَ:

- سوف آتي.. حين تفتحين نافذتَك.

أومأتْ له برأسِها وقد أدركَتْ محاولتَه لتطييبِ خاطرِها فخرجت كلماتها العذبة بحشرجة جريحة لطفلة حاولت اخفاء حزنها فلم تستطع والدموع تتغلغل بعينيها رغمًا وهي تعد علي اصابعها الصغيرة قائلة تتشبس بحروفها قوة:

- سأحسُب الأيام.

# غياب جندي

وفي صباحِ يومٍ جديدٍ أملٌ جديد.. حملَتْ فيه روفان حقيبتَها لجهادِ معركةٍ جديدةٍ على نيةِ التصدي لتحريرِ بلادٍ نسيَتْ الحرية، وبينما تسير راحَتْ تختلس النظرَ لخلفِها كالعادةِ ولكنها لم تشعرْ برفيقِ كتيبتِها فتوقفَتْ واستدارَتْ سريعًا لتباغتَه.. عقدَتْ ذراعيَها فلم يكُنْ موجودًا.

جلسَتْ في ركنٍ عند بابِ المدرسة وأسندَتْ وجهَها براحتيْها وفكرَتْ:

– هل يعقل أن يكونَ دخلَ المدرسة؟!

وسلَّمت وجهَها لراحتيها وانتظرَت.

انتظرَتْ لنهايةِ اليوم ولكنه لم يكُنْ من الخارجين فحملت نفسَها وغادرَتْ في حيرةٌ وضيق.

وفي اليومِ التالي.

خرجَتْ مبكرًا وظلَّتْ تسير بظهرِها ولكنه لم يظهرْ.. يا لها من وَحشة!!

سارَتْ يائسةً بخطواتٍ ساخطةٍ إلى منطقةٍ اعتادا على الجلوسِ فيها، منطقة تمركزهم التي يدافعون فيها عن بلدهم، هنا الأحجار سلاحهم متناثرٌ في كلِّ مكان.. هنا الصهاينة يطوفون بأسلحتِهم.. هنا تبدأ دومًا حربُهم.. هنا ملامحُها مازالت محتلة بالضيق.

تنفست من أرجائها ثم أخذَتْ عصا صغيرة وراحت ترسم بها على الأرضِ خطوطًا إلى أن زفرَتْ في مللٍ وهمَّتْ لتغادرَ وحين رفعَتْ رأسَها وجدَتْ مقدمةَ مدفعِ الصهيوني أعلاها وهو يصيحُ بالعبرية بكلماتٍ لم تفهمْ منها شيئًا وكذلك لم تخِفْها وهي تقول له بضيق:

– أيها المخبول غادرْ لأن رفيقي غيرُ موجودٍ لذا لا أريدُ محاربتك الآن.

نكزَها بمقدمةِ مدفعه في صدرِها وصاحَ بنفسِ الكلمات غيرِ المفهومة لكنها استحثت الفقد بلحظتها فكانت علي وشكِ البكاء لغياب رفيقِها فلوحت بضعف :

– هل أنتَ حمار! لمَ تحتك بي طالما أخبرتُكَ أنني لن أشتبكَ معـــك.

وألقَتْ نظرةً إلى أذنيْه وأضافَتْ: قريبًا ستكبران أذني الحمار عندك.. أقسم لك.

دفعَها لتغادرَ المكانَ بعد أن يئسَ من التواصلِ معها فعادت تلوَّحت له متضجرةً: لا تدفعْني، هذه بلدُنا أيها البغل.. سأضربُكَ يا فراس عندما ألتقيك...أين انت؟

من يشتري الحزنَ بسوقِ الدنيا برغمِ توافرِه.. برغمِ إنتاجِه.. وازديادِه.. لقد كثُرَ وفاض.. فاضَ بكلِّ القلوبِ.. وانسكبَ خارجًا بتلك القلوبِ الصغيرة.

ليت السعادةَ تُشْتَرى.

عادَتْ للمنزلِ وألقَتْ حقيبتَها على الأريكةِ بضجرٍ وأخذَتْ تفكر ولم يهدأْ بالُها حتى أتى صباحُ اليوم التالي، خرجَتْ باكرًا وعند بيتِ فراس اختبأَتْ وراحَتْ تراقب البابَ وضاقَتْ عيناها عند رؤيةِ فراس يخرج حاملًا حقيبتَه وأسرعَتْ تتبعُه خلسةً، اتبعته كثيرًا وهمسَتْ تحدثُ نفسَها: تُرى أين أنتَ ذاهب؟

وأخيرًا وصلَ إلى مستودعٍ بمنطقةِ الصحراء ودخلَ فيه فتبعَتْه وهناك رأَتْ الكثيرَ من البرطماناتِ البلاستيكية المعبأةِ ورأَتْ فراسًا يضع حقيبتَه جانبًا ويبدأ بنقلِ البرطمانات إلى الناقلةِ والتي تنقلُ إلى الشاحنةِ بالخارج..

- آه!

تلقى ضربةً مفاجئة على ظهرِه تألَّم منها وتطلَّعَ سريعًا لضاربِها وفوجِئَ بروفان تعقدُ ذراعَيْها أمامَ صدرِها متطلعةً إليه في غضبٍ فقال متفاجئًا: كيف أتيتِ؟ هل اتبعتِني بدون أن أعرف؟ هذا ليس من قوانينِ الجنود!

قالَتْ بعناد: ولكنكَ سبق واتبعتني.

ضحكَ وقال منتصرًا:

– أنتِ تتحدثين إليّ.

قالَتْ بعنادٍ أكثر:

– لأنكَ خائن.. ولابد من أن تعرفَ بذلك وكيف ستعرف إن لم أتحدث إليك.

وتطلعَتْ للبرطمان بيدِه وسالتهْ:

– ماذا تفعل هنا؟

همَ بالإجابة إلا أنه تدخلَ أحدُ الرجالِ وقاطع حديثهما وهتفَ فيهِما:

– ماذا تفعلان؟

ووجَّهَ حديثَه لفراسٍ:

– كيف تدعو فتاةً إلى هنا!

هتفَتْ روفان معترضه:

– لستُ فتاةً أنا جندي وهو جندي وسنحرر هذا الوطن.

ألقى إليهما نظرةً ساخرةً وقال:

– حقًا!!

ولوَّحَ لها قائلًا باستهتار :

– هيا غادري لا تعطِّلينا.. وأنتَ إما أن تنتبهَ لعملِكَ أو تغادر معها لتحريرِ الوطن.

ارتبكَ فراس وهمسَ لها قائلًا:

– حسنًا روفان، أنا أعملُ هنا.. نحن نحتاج للمال لأجل المنظار.. وانتبهي فهذا الرجل لا يعلم أنني ابن البراق فإن علمَ سيخبر أبي.. لهذا ادعه يضايقني ولم اكسر رأسه حتي الان, فانا مضطر,لقد رفضَ أصحابُ السوقِ أن أعملَ لديهم خوفًا من والدي...مكانه والدي تسبب لي المتاعب احيانا ..او كثيراً

استمعَتْ إليه في هدوءٍ وفكرَتْ قليلًا ثم أومأَتْ برأسِها وهي ترمق

الرجل بنظرة ثابتة متوعدة متفحصة ثم ربتت علي كتف فراس بطريقة شخص كبير رفع لها الرجل احدي حاجبيه وهي تقول له آمره

- حسنا اعتني به

وراقبها هذا الاخير بنفس الحاجب المرفوع المندهش حتي غادرت.

# معًا

رفعَ صاحبُ المستودعِ رأسَه وتطلع إلى روفان التي تقفُ أمامَه في حجرةِ مكتبِه بعد اصرارها علي لقائه وهي تقول:

– صدقْني منتجُكم مشهورٌ في كلِّ أرجاءِ المنطقة ولكن الجميع يشكو أمرًا واحدًا.. أعني أصحابَ المحلات.. إن برطماناتِكم مليئةٌ بالأتربةِ، وأهالي الأولاد يخافون الأمراض.

قاطعَها قائلًا:

– الحلوى نظيفة ولكن البرطمانات تكون من الخارجِ هكذا بسبب أن مستودعَنا يواجه الصحراء، أخبري الأولاد هذا.

أومأَتْ برأسِها وقالَتْ:

– سوف أفعلُ هذا بدون أجرٍ ولكنكَ ستعطيني أجرًا كبيرًا عندما أقومُ بتلميعِ البرطمانات قبل أن تُحْمَلَ للباعة.

هم لنفرِها ولكنه تراجعَ وقد أدارَ الفكرةَ برأسِه وقالَ:

– إنَّنا نحملُ يوميًا للمحلاتِ أكثرَ من ثلاثمائة برطمان.

قالَتْ:

– أنا لا أريدُ ثلاثمائة شيكل بل أحتاج لمائة شيكل فقط.

ابتسم لقولِها ثم سألَها بإعجاب :

– ابنة من أنتِ؟

أجابَتْ سريعًا:

– ابنة رجلٍ فلسطيني، لا تقلقْ لستُ من الصهاينة.

اتسعَتْ ابتسامتُه وهتف بحماس:

– حسنًا حيي لي والدَك الفلسطيني واذهبي لتلميعِ البرطمانات وسأعطيكِ أجرَكِ كاملًا.. هيا.

حيّته عسكريًا وخلعَتْ حقيبتَها ووضعَتْها جانبًا وقالَتْ بإهتمام :

– انتبهْ لهذه.. فيها كتبي، وكتبي جديدة فأنا لم أفتحْها بعد.. فإن سُرِقَت فأنتَ المسئول.

تجاوزَ عن قولِها وسألها:

– ولمَ لَمْ تفتحيها بعد! لقد أوشك العامُ الدراسي أن ينتهي.

أجابَتْ بجديةٍ وحماس ادهشة:

– ننتظرُ حتى نحررَ أنا وفراس الوطن بعدها سنأكلُ كتبَنا.

وأسرعَتْ تركضُ للخارجِ لتبدأ عملَها بينما تلاشَتْ ابتسامةُ الرجلِ وتمتمَ شاردًا:

– الوطن.

# حبٌ من نوعٍ آخر

وفي هذا اليوم وقد اشتدَّتْ حرارةُ الشمسِ وخاصةً بتلك المنطقةِ الصحراويةِ جلسَ الاثنان بركنٍ على جانبِ الطريقِ وأخذا يعدان نقودَهما فقالَ فراس:

– لدينا الآن خمسةٌ وأربعون شيكلًا ينقصُنا خمسة وخمسون.

ضربتْه وقالَتْ:

– ألم نتفقْ أن نظلَ متذكرين دروسَنا.

تحسَّسَ ضربتَها وصاح:

– ماذا؟

قالَتْ:

– ألا تعرف الحساب إنهم أربعون.

عادَ وضربَها وهتف:

– وبقيَتْ لديّ خمسٌ من أمسٍ لقد عملتُ بعشرة.

عادَتْ تضربُه وقالَتْ:

– عملْتَ بعشرةٍ فقط وصرفْتَ نصفَها.

تنحنحَ في حرجٍ وقالَ:

– كنتُ مضطرًا.

قالَتْ باستياءٍ:

– مبذر، أنت دومًا هكذا، هل تذكرُ حينَ ادّخرْنا نقودًا للنبالِ صرفْتَ أكثرَ مما ادخرْتَ وكذلك عندما عملنا لأجلِ المفرقعاتِ لإرعابِ الجنودِ أخذْتَ جزءًا ولعبْتَ به وكذلك عندما عملنا شهرًا لأجل مسيلِ الدموع الذي باعَه لنا «أنور المخترع» لم تَكُنْ اقتصاديًا أبدًا و...

قاطعَها هاتفا:

– كفى لقد اشتريتُ لكِ هذا.

توقفَتْ وهي تتطلع للقبعةِ التي أخرجَها من حقيبتِه فأردف:

– إننا نسيرُ كلَّ يومٍ تحت الشمس.

سألَتْه سريعًا:

– هل أحضَرْتَ لنفسِكَ واحدةً.

مدَّ يدَه وقال:

– أعطيني الخمسةَ الباقيات.

ضربَتْ يدَه وقالَتْ:

– سنرتديها.. مرةٌ أنت ومرةٌ أنا.

سألها:

– من سيرتديها أولًا؟

أجابت:

– سنقترع.

وافقها:

– حسنًا.

# اتفاق

وفي يوم جديد.. بدأَتْ الشمسُ في رحلتِها إلى الغروبِ بينما كانَ فراس وروفان يسيران عائدان من منطقة حربِهما من بعدِ يومٍ طويلٍ شاق.. وفجأة، استوقفهما صبيٌّ طويلٌ بدا يكبرُهما بعامٍ أو أكثر، بذراعٍ واحدة والأخرى حل محلَّها كُمٌّ قميصٍ مدلدل، ووجهٌ متضجرٌ متوعد.. تطلعا له في تساؤلٍ فقال:

– من منكما ضربَ كرتي أمس؟

تطلعَت لفراسٍ في تساؤلٍ وبادلَها نظرةً أجابَها فيها بحيرةٍ فمطَّت شفتيْها وقالَتْ له:

– هل رأيتَ يا فراس؟

أجابَها:

– أظنني رأيت.

أردفَت:

– أجل إنه تمساح.

أومأ برأسِه وقال:

– كان تمساحًا جاء وضربَها بقوةٍ وطار.

هتفَ الصبيُّ غاضبًا من تلاعبهما:

– ضربَها تمساحٌ وطار!

قالَتْ:

– أجل وكان لونُه أصفر.

اضاف فراس:

– ربما كان يميل إلى الاحمرار.

قالَتْ له باستنكار :

– هل أنتَ متأكد؟ لا تكذبْ فراس.. كانَ أصفرا!

اجابها:

– صدقيني رأيتُه جيدًا وكانت له أذنان مقرفتان.

قالَتْ موافقةً:

– بلى مقرفتان.

قال الصبيُّ بعصبيةٍ:

– أنتما كاذبان.

سألَتْه:

– هل رأيتَه؟

أجابَ:

– بالطبعِ لا.

قالَ فراس:

– إذن لا تقول أننا كاذبان.

انعقدَ حاجبا الصبي وقال:

– ماذا تقولان.. أنتما تكذبان وتؤلِّفان.. وتبتدعا القصص.

قالَتْ بهدوءٍ:

– طالما لم ترَ.. ربما أنتَ محقٌ نبتدع القصص والأكاذيب.

وأضافا بصوتٍ واحد:

– مثلك.

تراجعَ مصدوما فقال فراس مهاجمًا:

– أنت تتهمنا وكأنّكَ رأيتَنا نلقي بكرتِك.

قالَتْ كذلك بنفسِ النبرةِ الهجوميةِ:

– أنتَ من تكذب يا (رجي).

وأردفَ فراس:

– إن فعلْنا فسنقول.. إنما أنتَ تعلم أننا لم نفعلْ وتتهمنا.

وأضافَت:

– أنتَ دومًا تلعب بكرتِكَ الثمينة.. كما أخبرتَ الجميعَ.. فإن ضربَها أحدٌ فأنت مؤكد رأيتَه.. ونحنُ لم نقتربْ من كرتِكَ.. إذَنْ أنتَ تتهمنا كذبًا.

استسلمَ في ضيقٍ معترفا:

– لقد ضربتُها فعلقَتْ.

وأشارَ على سورٍ قديمٍ وأردفَ:

– داخل هذا البيتِ المهجور ولو علمَ أخي سيغضب كثيرًا، لأن اللاعبَ المصري «محمد أبو تريكة» موقعٌ عليها و...

قاطعاه معًا بنفسِ النبرة:

– نعلم.

أردفَ:

– أنا لا أستطيعُ تسلقَ هذا السورِ وجلبها.. أنتما تستطيعان.. فعلتُماها أكثرَ من مرة.

قال فراس:

– تسلقْنا الشجرَ والمتاريس وليس أسوارَ المنازل.

تقدمت اليه وقالَتْ:

– أتتَّهِمنا لترغمَنا على تسلقِ السور؟

قال مبررًا:

– لولا ذراعي لتسلقتُه.

قالَتْ:

– لا رجي.. أنتَ تكذب، لو كان ما يمنعُكَ ذراعُكَ لطلبتَ منا بدونِ أن تحاولَ أن تلصقَ بنا هذا.. أنت تخافُ من المنزلِ المهجور.

أصابَتْ بقولِها فاعترفَ قائلًا:

– خلفَ السورِ أشباح.

وهمسَ مستطردًا في توترٍ:

– خلف السور أشباحٌ لأصحابِ البيت، أرواحُهم الغاضبةُ تحوم منذ قتلِ الصهاينة لهم داخله.

وأردفَ بتوترٍ أكثر:

– أنا أخافُ دومًا من البقاءِ بمفردي.. وخاصةً عندما تغيب الشمس،

فؤاد صديقي على الإنترنت بالإمارات يمكنُه البقاءُ ليلًا بلا خوفٍ.

قال فراس متهكما:

– إذَنْ كل شبرٍ حولَنا تحوم الأرواحُ.

تطلعَتْ روفان حولَها والتصقَتْ به على نحوٍ لا إراديّ وهي تختلسُ النظرَ لغروبِ الشمسِ فأردفَ فراس:

– في كلِّ مكانٍ قتلوا الصهاينة منا.. الأرواح تذهب للجنة.. قال جدي هذا.

قال رجي متلهفًا وهو ينتبه للظلامِ الذي حل:

– حسنًا، ساعدوني وسأعطيكما ما تريدانه.

قالَتْ روفان:

– أنا وفراس لن نتسلقَ السور.. مستحيل.

هتف فراس:

vنريدُ كلبًا من كلابِك.

تراجعَ رجي وهتفَ:

– أخبرتُكَ مرارًا أني لن أعطيكَ أيًا من كلابي.

قال فراس: ،

– أخبرتُكَ أنني سأعتني به في حديقةِ منزلِنا.

قالَتْ روفان:

– ولكنَّنا لن نتسلقَ السورَ فراس.

قال لها:

– سيعطينا كلبًا مقابل هذا.

أدارت الأمرَ برأسِها فهما سبقَ وترجياه مرارًا وتناقشا كثيرًا برغبتِهما في كلبٍ يفيدهما بحرِهما.

هتف رجي:

– حسنا سأعطيكَ واحدًا عندما تلِدْ (ساسي).

سأله فراس:

– – من ساسي؟!

أجابَ:

– إحدى كلابي.. لم تلِدْ بعد.

هتفَتْ روفان:

– تعقد اتفاقًا على كلبٍ لم يولدْ.. حسنًا عندما تلِدْ سنحضرُ كرتَكَ القيمة.

سألَه فراس باهتمامٍ:

– ومتى ستلد؟

أجابَتْ عنه بنبرةٍ ساخرةٍ:

Vفي شهر سيلول.

سألَها فراس باهتمام :

– وكم تبقى على شهرِ سيلول؟

تطلعَت له وزفرَتْ ثم سحبتْه من ذراعِه بعيدًا وهمست:

– إنه يتلاعب بنا.. لا تصدقْه.. كما لا يوجد شهرٌ اسمه سيلول يا فراس.. أنا اخترعتُ هذا.

همس باصرار:

– ولكني أرغبُ بهذا الجرو وسأنتظر.

صمتَتْ أمام قولِه فأردف:

– حتى لو تأخر شهر سيلول.

ضحكَتْ فضحك.

ومن ثم تطلعا إلى رجي بتساؤلٍ فأجاب:

– أعدُكما بأني سأعطيكُما الجرو.

أسرعَت قائلةً:

– وساسي؟

هتفَ:

– ماذا؟

قالَتْ:

– سيحتاج لأمِّه حتى يرضع..

وعقدَت ذراعيها وقالَتْ بتهكمٍ واستنكار:

– وإلا ستقول سأبقيه عندي.

قال باحتجاجٍ:

– لا تحتالا عليَّ.

قال فراس:

– الجرو لنا من حقِّنا الاعتناء به.

قال رجي:

– اشتريا لبنًا واعتنيا به.

قالَتْ:

– سيمرض وسيموت.

هتفَ:

– ولِمَ؟

قالَتْ:

– لأن الصغيرَ إن لم يشربْ لبنَ أمِّه يموت.

مالَ فراس على أذنِها وهمسَ:

– ولكنَّكِ لم تموتي.

غمزَتْ له وهمست:

– وهل أنا جرو؟

همسَ:

– قلتي صغير.

قالَتْ بضجرٍ:

– لا تتذاكى الآن.

هتف رجي:

– حسنًا لا حلَّ سوى أن تُبقِياه عندي إذَنْ حتى يكتفي.

قالَتْ:

– إذَنْ سنقيمُ عندَكم.

وأضاف فراس بطفوليةٍ:

– ليعتادَ الجروُ علينا.

زفرَ أخيرًا باستعجالٍ وقال بنفاذ صبر:

– سنرى.

فابتسمَتْ روفان لفراس والذي قال لرجي بخيلاء:

– هل تريد شيئًا آخرًا من وراءِ السور.

قال متضجرًا:

ا – لكرة فحسب.

وتطلَّعَ لروفان التي بان على ملامحِها القلق فقالَ متعاليًا بطفوليةٍ أكثر:

– سأقاتلُ الأشباح.

وأشار لـ(رجي) لإفساحِ الطريقِ في شيءٍ من الاستعلاءِ بادلَتْه إياه روفان برغمِ قلقِها بحركةٍ قتاليةٍ تشجيعية.

وعلي نحوٍ مسرحيٍّ تقدمَ وتعلَّقَ بالشجرةِ الملتصقةِ بالسورِ وتسلقَها وهناك جلس على أعلى السور وألقى نظرةً متفحصةً صمتَ لها الجميعُ في حذرٍ.وحرص.وصمت.وإصغاء.وفجأة صرخَ:

– أرى شبحًا.

ارتبكَ (رجي) وفرَّ من المكانِ كالبرقِ بينما ارتعبَتْ روفان وراحَتْ تتحرك في هلعٍ وهي تضربُ الأرضَ بقدميها صائحةً:

– انزلْ بسرعة!

وحاولَتْ تسلقَ الشجرةِ لمساعدتِه على النزولِ ومن ناحيتِه عاد إلى الشجرةِ لينزلَ ولكنها بادرَتْه بسحبِ قدمِه وسقطا معًا.

طارَتْ الكرةُ بعيدًا عند سقوطِهما.. والتفتَتْ روفان سريعًا لابتسامتِه فأدركَتْ خدعتَه وشدَّتْ قامتَها وقالَتْ باستياءٍ لم يخلُ من بقايا رعبٍ:

– أحسستُ بأنَّكَ تخدعنا.

اختلطَتْ ابتسامتُه بالألمِ وهو يقول:

– لا لم تدركي هذا وإلا ما أوقعتِني أرضًا.. انظري لقد جرحتُ يدي.

تطلعَتْ ليدِه فأردف:

– كانتْ معلقةً بالشجرةِ ناحية المنزلِ.. لم يكن سيعطينا الجروَ إن علمَ أنها كانت معلقةً.

قالَتْ:

– رجي هرب ونحن من سقطْنا وأنتَ أصبت.. لنذهب ونحضر ليمونًا من عم (شويحي) ونضعُه عليها.

خبأ كفَّه وقالَ سريعًا:

– لقد شُفيت.

قالَتْ:

– كنْتَ الآن تتصرف كسبايدر مان.. جبان.

قال:

– كنتِ ترتعبين منذ قليلٍ.. جبانة.

بررت:

– لم أكُنْ مرتعبة.. بل كنتُ متعجلةً فحسب.. فلقد تأخرْنا للعودةِ.. عم (يس) مؤكد يقف على البابِ الآن.

سألها:

– ينتظركِ؟

أجابت:

- لا ليشتري لبنًا.

شدَّ قامتَه وقال:

- تمزحين؟!

قالَتْ وهما يسيران للعودةِ:

- لا أمزح.. حقًا يأتي بائعُ اللبنِ في هذا الوقت.. بقرتُه تتأخر بالحليب.

التقط الكرة بطريقة وهو يسألها:

- كيف تتأخر.. تصحو متأخرةً؟

قالَتْ:

- لا أدري أظنُّها تأخذ وقتًا لتحضيرِ الحليب ببطنِها.

قال موافقًا:

- أجل فالحشائش تأخذُ وقتًا لتصبحَ حليبًا.

قالَتْ موافقةً:

- سبحان الله.

قال متسائلًا:

– حقًا سبحان الله كيف تتحول الحشائشُ الخضراء ببطنِها إلى اللونِ الأبيض!

قالَتْ متهكمةً:

– أيها الذكي هذا العلف الذي يضعونه.

قالَ مستغربًا:

– نشرب علفًا!

أضافَتْ:

– بالماء.

بدا وكأنه يتخيل ذلك فبان على وجهِه وكأنه سيتقيأ.. ولكنَّه قالَ لاسترضاءِ نفسِه:

– أنا شربتُ لبنَ أمي.

قالَتْ بغيظٍ:

– وأمُّكَ مؤكد شربَتْ لبنَ البقرة.

قال باهتمامٍ:

– لابد وأن هناك سر بشأنِ ذلك.

فكر قليلا ثم قال بشئ من الاسف :ربما فاتنا هذا بالمدرسة.

قالَتْ تطمئنة:

– انظر الَيَّ, الله يستطيع فعلَ كلِّ شيء.. تقولُ عمتي دومًا هذا.

قال بابتسامةٍ حماسية:

– سأطلب من الله أن يحبَّنا لأننا نحبُّه.. ويكره الصهاينة.. مؤكد يكرهم.

قالَتْ باهتمام:

– وذكِّرْه ببيتِنا وأرجوحتِنا وحديقتِنا.. وبعض الأشياء التي لا أذكرُها الان من البرد... لكنه يذكرُها لأنني أخبرتُه سابقًا.

قال:

– لنكتبْ ما نريدُه حتى لا ينسى عندما نعطيه طلباتَنا يا روفان.

قالَتْ:

– لن ينسى يا فراس، كذلك قالَتْ بروج إن الله يعلمُ ما نفكرُ به.

تراجعَ مندهشًا وهتف:

– حقا!؟

قالَتْ في تساؤلٍ لدهشته:

– بلى كلَّ شيء.. هكذا قال لنا أيضًا جَدُّكَ يا فراس.

قالَ قلقًا:

– بالتأكيد لن يخبرَ أخي صالح بما فكرْتُ به أمس عندما رفضَ إعطائي هاتفَه.

توقفَتْ وتطلعت إليه وقالَتْ:

– سببتَه؟

أومأ برأسِه في توترٍ فتوتَّرت بدورِها وقالَتْ:

– لا تخَفْ، لا أظنُّه أخبرَه.. لنسرعْ للمنزل قبل أن يخبرَه.

ركضا سريعًا نحو منزلِه وهناك التقى فراسُ بأخيه صالح.. رمقَه بنظرةٍ متوترةٍ ومرَّ بمحاذاتِه في حذرٍ.. تابعَه صالحُ بنظرةٍ مندهشةٍ وتمتم:

– ما بالُ هذا الصغير اللئيم؟

وقابلَه والدُه بسؤالِه:

- لمَ تأخرت؟

رفعَ له الكرة.. فأومأ البراق برأسِه وقال:

- حسنًا اذهبْ لتغتسلَ وتستريح.

أسرع فراس إلى حجرتِه وهناك طلَّ من نافذتِه وأشارَ لروفان المنتظرة بالأسفل ملوحًا بأن كل شيء على ما يرام.. أشارَتْ له بالارتياح وركضت لمنزلِ العم (يس) وهناك عند البابِ التقَتْ بالشيخِ فسألَها بشيءٍ من العصبية:

- أي دراسةٍ تلك التي تنتهي بالمساء؟

قالَتْ:

- كنتُ مع فراسٍ.

قالَ:

- أعلم.

ضاقَتْ عيناها واختلسَتْ النظرَ للسماء..

قال لها متضجرا:

- ادخلي.

تجاوزَتْه للداخل وتمتمت بطريقِها للسماء: أخبرتَه عني وأنقذْتَ فراسًا

# صراع أب

## اقسي موت هو خسارة الاحلام

تطلعَتْ نسيمُ لذلكَ الفستان الأبيض الذي أحضرَه لها والدُها وهو يقول: هذا الفستان من الإمارات جديد صُنِعَ خصيصًا لكِ.

مرَّرَت أصابعَها على زخرفتِه وارتسمت ابتسامةٌ حالمةٌ على شفتيْها وقالَتْ: سأكونُ ملكة.

تراقصَتْ الابتسامةُ على وجهِ والدِها وارتسمت علامات التعجب على وجهِ جدِّها ولكنه لم يلبثْ أن ابتسمَ مدركًا عندما أضافت:

- كما قال سالم.

تلاشت ابتسامةُ والدِها وتحوَّلَتْ لأسفٍ وبدَتْ ملامحُه في صراعٍ ما بين الابتسامةِ لفرحتِها وأملِها وذلك البريق في عينيها حبًا لرجلٍ مثل سالم استحقَّ لقبَه برجلِ الرجالِ وأنَّها تميزَتْ باختيارِه لها فكانت حقًا زهرتَه كما رآها دومًا بعينِه، وبين ابتسامةِ الشفقةِ على أميرةٍ لا يستطيع إهداءها لفارسِها الذي لا تستحق سوى رجلٍ مثله، وواجبُه كأبٍ يحب ابنتَه الوحيدة أن يحافظَ على حياتِها.. ووسطَ تلك الحيرة استولى الحزنُ على المعركةِ فأشاحَ بوجهِه وجرَّ أسفَه وغادرَ حجرتَها ومن خلفِه استطاع والدُه أن يحدقَ حيرتَه فأبقى على وجهِه ابتسامةً عريضة أضافَ إليها حماسًا ليلهبَ الشفقةَ ليطردَها فما للشفقةِ مكان لوضعِ صغيرتِه وأميرها البطل ورحَّب بكلِّ فخرٍ ليعانقَها في ارتياح.

وفي الصباح خرجَت روفان تحمل حقيبةَ المدرسة وفردَتْ ذراعَيْها وهي تتثاءب وفجأة تراجعَتْ في هلعٍ عندما ظهرَ فراسُ فجأةً قاصدًا افزاعها ولكنَّها استدركَتْ حين وجدته بينما ظلَّ هو يضحك فحدقَت به في غيظٍ وصاحَت:

- سأنتقمُ منكَ.

وركضَ فتبعته تلحقُ به وهي تهتف:

- دعني أضربُكَ وينتهي الأمر.

وضربت على حقيبتِه فسمعت صوتًا داخلها وكأنه زجاجات فسألته:

– هل تحمل زجاجًا بحقيبتِكَ؟

أجابَ ببساطةٍ:

– زجاجاتٍ صغيرة.

سألَتْه:

– ولِمَ تحمل بحقيبتِكَ هذه الزجاجاتِ الصغيرة؟

قالَ:

– أنا أجمعُ رفاقًا بداخلِها.

ألقَتْ نظرةً مندهشةً وهتفَتْ:

– مازلتَ تجمع الحشرات، يا لك من مجنون!

أخرجَ لها زجاجاتٍ صغيرة وقرَّبَها من وجهِها فتراجعَتْ صارخةً فضحِكَ ولكنها هتفت:

– هذه عقارب؟!

قال بفخر:

– أصدقائي.

قالَتْ وهي تهز رأسَها في تعجبٍ:

– عقارب يا فراس!!

قال مقتنعًا:

– فكرْتُ في أصدقاءٍ لنا جدد.

أشارَتْ له بأن يبعدَها وقالَتْ:

– هيا خبِّئْها قبل أن تتطورَ العلاقةُ وتخرج لتعانقَنا.

ضحك وأسرع يضعَها بحقيبتِه وأغلقَها ثم حملَها على ظهرِه فقالَتْ وهي تتطلع لها:

– هل تدخل منزلَكَ بهذه الحقيبة؟

اجاب:

– إنها تبقى معلقةً على الجدارِ بمنزلي.

وفجأةً جذبتْه عن الحائطِ وقالَتْ:

– لتسِرْ بعيدًا عن الجدران حتي لا تنكسر الزجاجات.

لوح:

– قلتُ لكِ أصدقائي لا تكوني خائفة.

اندفعت:

– لستُ خائفةً.

قالَ ضاحكا:

– حسنًا فلنتقاسمْ الأصدقاءَ للبياتِ بمنزِلِكَ.

تراجعَت وقالَتْ:

– هذا ما كان ينقص الشيخ (يس)!

ثم أسرعت وسألته:

– هل أعدْتَ الكرةَ لـ(رجي)؟

أجابَ:

– ذهبتُ من الصباحِ الباكرِ لإعادتِها وللاطمئنان على جروي في بطنِ (ساسي).

قالَتْ بحماس:

- كيف حالُه؟

أجاب بأسفٍ:

- (ساسي) لونُها أسود.

سألته:

- وأبيه؟

أجابَ:

أ - سود.

مطَّتْ شفتيْها وقالَتْ:

- هذا مخيف ربما يجب علينا أن ننسى أمرَ الجرو.

قال بضجرٍ طفولي:

- ولكني أريدُه.

قالَتْ مسرعة:

- أمزح.. سوف نقصُّ فروَه ونطليه بالأبيضِ والأصفرِ والأزرق..

ابتسم:

– هل يمكنُنا أن نجعلَ رأسَه أحمرًا؟

تطلعت اليه تتفحص جديه قوله من ملامحهْ قائلة:

– هكذا سيصبحُ مخيفًا أكثر.

ضحكَ لقولِها ببساطة فبادلته ضحكتَه بضحكةٍ أكبر وأوسع وتقدمَتْه وهي تهتف:

– سأسبقُكَ.

وفي طريقِهما خطفَتْ منه القبعةَ وقالَتْ:

– إنه دوري.

استسلم:

– حسنًا دوري سيكون ونحن نسيرُ تحتَ الشمسِ.

تطلعَتْ لظلِّ المنازلِ وقالَتْ:

– هذا غيرُ محتسبٍ إننا نسيرُ بين البيوتِ الآن.

توقفَ وصاح:

– لا شأنَ لي.

توقفَتْ مثلَه وخلعَتْها :

– حسنًا لن يرتديَها أحدٌ منا خلال الظلِّ وسنبدأُ نتقاسمَها عندما نسيرُ بالشمس.

بدا وكأنه كان يخطِّطُ لأمرٍ آخر فخطفَها منها :

ا – تفقَّنا.

وسارا ولم يلبثْ أن ارتداها فخطفتها من على رأسِه وقالَتْ:

– لا تغش.

# ذكريات

**لا شيء يصلح القلوبَ قدرَ الحب.**
**ولا يكتمل حبٌ بلا إيمان.**
**سيحتَلُّه التزييف.**

وضعَتْ نسيم رأسَها على وسادتِها وشردت في ركنٍ من أركانِ الحجرة وتذكرت أولَ مرةٍ تلتقي فيه بسالمٍ وقد كانت تسمع عنه وكم تمنَّت رؤيتَه..

منذ عامٍ لم تَكُنْ تعرف عنه أي شيء سوى أنه بطلٌ قهرَ الصهاينة، لم تَكُنْ تعرف معاناتَه وفقدانِه لزوجتِه بعد أن أحرقَ اليهودُ منزلَهم بعد ولادتِها وشاءَ القدرُ أنه في ذلك اليومِ يخرجُ هو ليسجلَ ابنتَه في سجلِّ

المواليدِ ليعودَ لبيتِه ولا يجد سوى رمادٍ، ولم يتبقَّ لديه سوى رضيعتُه، لا يعلم الكثيرون عنها بينما يظن الصهاينة أنهم حرقوا الوليدَ مع والدتِه.. تلك الفتاة التي تركَها لابنة زوجة أبيه الأولى والتي هي زوجة الشيخ (يس) الذي لم يكُنْ له أي نشاطٍ سياسيٍ لذلك كان الأنسبَ لبعدِه عن الشكوك.

وبرغمِ رفقةِ أخيها لروفان ونشأتهما معًا إلا أنها لم ترَه قبلًا قطَّ وكأنَّ روفان لا ترتبط سوى بأخيها فلم تسألْها عنه ولم يسبقْ أن تحدثا عنه معًا.. وتذكرَتْ المرة الأولى التي التقته فيها..

كانت بزفافُ إحدى رفيقاتِها وفجأةً اقتحمَ الجنودُ الزفافَ كالعادةِ وراحوا يخربون ويعتقلون من الرجال بالزفاف وضربوا العريس وملأوا سيارتَهم وهناك برزَ سالم أمام أعينِ الجميعِ وصاح:

– لكن الزفاف لم ينتهِ بعد.

بدا الجنودُ يعرفونه وتهامسوا وهمّ أحدُهم بإطلاقِ النارِ إلا أن القائد أوقفَه في سرعةٍ.. ولم يلبثْ أن رأي الجميعُ تلك الفوهات بالأعلى وخلفها وجوهٌ لرجالٍ ملثمين يصوبون مدافعَهم في حذرٍ واستعداد.

لذلك أسرعَ الجندي وخفضَ سلاحَه وقد أدرك فارقَ العددِ وتمتمَ بعباراتِ السخط فقال قائدُهم بالعربية:

– أوه يا إلهي كم أنا مندهش!! الفلسطينيون يستطيعون رفعَ أسلحةٍ بوجهِنا.

اقتربَ منه سالم وقال بنبرةٍ صارمةٍ:

– هل ألتقطُ لكَ صورةً لتحتفظَ بها؟

قال الصهيوني متهكمًا:

– لا داعيَ اليوم.. فغدًا أو بعدَ ساعاتٍ سيلتقطُ لكَ ولهم الكثيرَ من الصورِ في مجزرةٍ سيتناقلُها العالمُ التافه.

ابتسمَ سالم وقالَ وهو يقفُ بوجهِه بنظرةٍ مستخفةٍ:

– وماذا عن الآن؟ لمَ ستذهب ما دُمتَ ستعود؟ فلتَكُنْ شجاعًا وترينا، أم إنَّك ستذهب للنوحِ لقادتِك؟

ومالَ إليه يضيف هامسًا:

– لإرسالِ رجالٍ بدلًا من نساء.

احتقنَ وجهُ القائدِ الصهيوني وقالَ متوعدًا:

– سأنتزعُ روحَكَ يومًا ما.

وهمّ ليغادرَ إلا أن سالمَ أوقفَه قابضًا على كتفِه وهمسَ له متهكمًا:

– وماذا عن غدٍ أو بعدَ ساعات؟

عضّ الصهيوني على أسنانِه وشعر بالغضب يتضاعف أكثر حين ضربه سالم على كتفِه ضربة أهانته كطفل مطرود وهتف:

– أسرعْ.. لا تبكِ هنا.

عادَ يرمقُه بنظرةٍ مليئة بالمقتِ والوعيد ثم أشارَ لجنودِه فحرروا الرجالَ من السيارةِ وحملوا أنفسَهم وخيبتَهم وغادروا.

وبمجردِ أن شغلَ محركَ سيارتِهم انطلقَت الزغاريد تهزُّ المكانَ وأسرعَ الرجالُ يحيون سالم ولكنه استأذن ليغادرَ إلا أنه فجأةً ومن بينِ الجميعِ تقدمت نسيمُ وهتفت:

– سالم يزن!

استدار بهدوء، وتساؤل.

فأردفت بمزيجٍ من اللهفة والانبهار :

– أنتَ بطلي.

تهامسَ الناسُ واندهشَ بعضُهم والتزمَ الصمتَ أكثرُهم بينما توقفَ سالم يتطلعُ لتلك الشابةِ الجميلةِ أمامَه التي برقَتْ عيناها على نحوٍ أشعرَه بالارتباكِ فابتسمَ لها ولابتسامتِها الرقيقة، ولكن تلاشَتْ ابتسامتَه سريعًا عندما انتبهَ لمن حولَه وغادرَ بخطواتٍ سريعة.

ابتسمت عند تذكرِ هذا وأغلقت عينيها راجيةً أن تراه بحلمِها وألا تصبحَ كذلك للأحلام احتلالٌ يمنعُ لقاءهما.

# فكرة جديدة

– أحسنتِ روفان.

نطقَ فراسُ جملتَه بابتسامةٍ حماسيةٍ وأردف:

– كدْنا أن نجمعَ المال.

– أحسنتَ أنتَ كذلك، علينا أن نعملَ يومًا آخرًا لنكملَ المال.

قفزَ في الهواءِ وهتفَ مهلِّلًا:

– سنملكُ المنظار.

وبكلِّ حماسٍ ضاعفَ قوَّتَه وضربَ حجرًا بقدمِه نحوَ الفراغِ أو هذا ما كان يظنُّه فقد استقرَّ الحجرُ في مكانٍ آخر وفجر زجاجَ محلِّ الحلاقِ فتسمر الاثنان أمام الرجلَيْن الضخمَيْن اللذين سرعان ما خرجا يحملان أسلحةَ الحلاقة.

الشعورُ بالخيبةِ هو أمرٌ استدركَه البشرُ كلما واجهوا من مسائلِ الدنيا، شعورٌ بات يُفهَم كلما كبرُ العمر.. ولكن سريعًا ما وجدَ هذا الشعورُ محلًا بداخلِ الصغيرين ولم يبالِ بالعمر.. قادمًا ليصارع على الاستقرارِ بنفوسِهم.. حينها ربتَتْ روفان على كتفِه وقالَتْ مواسيه:

– لا بأسَ فراس سنعمل.

وأشارَتْ بكفِّها بقنوط: لثلاثِ أيام أخرى.

قال نادمًا: لم أَكُنْ أقصد، ولكنهما أخذا المال.. لم يَكُنْ عليهما أخذُ مالِنا مادمتُ لم أقصدْ.. ولكنهما كانا سيخبران والدي.

قالَتْ: آه يا فراس لا تيئسني، أساسًا أنا تعبتُ من مسحِ البرطمانات.

أردفَ هو: وكذلك ظهري يؤلمني من نقلِها.

توقفا ثم جلسا كعادتِهما في ركنٍ من الشارعِ واستندا للحائطِ فسألَتْه بإحباط: كم تبقى معنا؟

أجابها بإحباطٍ أكثر: عشرة.

سلَّمَت وجهَها لراحتيْها وكذلك ضمَّ معصميه على ركبتيه وأسندَ وجهَه عليهما.

قالَتْ: علينا أن نجدَ وسيلةً أخرى بجانبِ محل البرطمانات.

قال بدونِ أن يرفعَ رأسَه: تكون أسهل.

وأضافَتْ: وأسرع.

رفعَ رأسَه وقال: نبيعُ الماءَ.

بمجردِ أن تطلعَتْ إليه استدركَتْ فكرتَه فاضافت: ماءً مثلجًا.

اعتدلَ واستدارَ إليها وأردف: نملأُ الزجاجاتِ ونبيعُها للعمالِ بجانبِ المستودعِ، إنهم يتعرضون للشمسِ طوالَ الوقتِ والماء معهم يسخن من الحرارة.

مدَّتْ يدَها إليه وقالَتْ: أعطِني العشرة الباقية.. سوف أجمعُ زجاجاتٍ من كل المنازل.

وأضافَ: سنجمعُ الزجاجاتِ من كلِّ مكانٍ ونغسلُها جيدا.

قالَتْ: علينا أن نسرعَ حتى نضعَها بالبرادِ لغدٍ.

وهبَّ الاثنان وقالَتْ هي: أمامنا ساعة لجمعِ الزجاجات البلاستيكية.

أسرعَ قائلًا: سنجتمعُ خلفَ منزلِنا في استراحةِ جدي هناك حوض بلاستيكي اشتراه لي والدي، سنملأُه لنغسلِ الزجاجات.

رمقَتْه بنظرةٍ متضجرةٍ وقالَتْ: لم تخبرْني بشأنِ حوضِك من قبل.

قال: أخبرتُكِ.

حدقت وهتفت: متى؟؟

هتف: الآن.

العزيمةُ هي سلاح.. سلاحٌ لا حدودَ لقوتِه فإن ملكَه البشرُ ما استطاعَ الضعفُ أن ينتصرَ عليهم.. وقد كانَ للصغيرين عزيمةٌ فاقَتْ الجبال فاستسلمَتْ الخيبة وفرت سريعًا باتجاهِ عكسِ الطريق الذي ركضا منه وفراس يسبقُها ومن خلفِه ركضت وهي تهتف: سأجمعُ زجاجاتٍ أكثرُ منك.

ولكنه ضَحِكَ وهتف: سنرى.

# أميرة وفارس

أسندت رأسَها على زجاجِ نافذةِ حجرتِها حينها دخل جدُّها وابتسمَ لها وجلس على أقربِ مقعدٍ بالحجرةِ فاقتربت منه وجلست بالأرضِ أمامه ووضعت رأسَها على فخديه.. ربَّتَ على رأسِها وقال:

– لا تحزني بسبب منع أبيكي لخروجك.

قالَتْ:

– ليس بالسهولة أن ألتقي سالم لذا لستُ حزينةً لبقائي بالمنزل حتى هاتفي الذي أخذَه لا يهمني؛ لأن سالم عادةً لا يستخدم هواتف ولكنه اشتراه لأجلنا.. ولكنني لا أحادثه كثيرا حرصًا من أن يكتشف الصهاينة مكانَه.

وتطلعت لأعلى لوجهِ جدّها وقالَتْ مبتسمةً:

– ولكنه لا يخشاهم ويتصل بي.

بادلَها ابتسامتَها فأردفت وهي تقفزُ متحمسةً من موضعِها قائلةً:

– سأرتدي الفستان وطرحة، وأعلاها تاج فضي.

واقتربت منه بوجهٍ طلت منه اللهفة وبدت وكأنها ستخبرُه سرًا :

– وسأرتدي بقدمي حذاءً رياضيًا وجواربَ طويلةٍ بيضاء.

انطلقَ الجدُّ ضاحكًا فأردفت مؤكدةً:

– هكذا أريدُ حقًا!

وراحت تدور حولَ نفسِها وهي تقول:

– وسأدورُ بفستاني حتى أشعرَ بالدوارِ فيسندني سالم.

تلاشت ابتسامةُ الجد بغتةً.. إنه أدرك.. ها هنا ثمة حلم.. دونًا عن كل ما أدرجته.. حلم نطقَتْه أخيرًا.. إنه في خانة الأحلام.. لا يقارن بكل ما تمنته.. حلم لا يستطيع أن يمزحَ بشأنِه أو ألا يبالي به أو أن يؤجلَه أو أن يخفيه لبعد.. حلم هو حجر دلو حياتها.. يا لها من قسوةٍ أن يصبحَ الحقُ حلمًا..

فتناثرَ على ملامحِه العجزُ والحزنُ والأسف، وتمنى لو أمسكَ بيدِها ومر من كل الأبوابِ حتى يدفعَها بين ذراعَيْ سالم.. الرجل الذي أحبه من حبِّ حفيدتِه له، غيرَ كونِه رجلًا بحقّ فكان البطلَ والفارسَ والأميرَ بعينِه كما بعينِها.. وضاقَ صدرُه لواقعِ أميرةٍ لا تستطيع الوصولَ لفارسِها.

# عم أمين

دخلت روفان حجرةَ الشيخِ (يس) في لهفةٍ كنحلة تائهة تتفحص كل اركان الحجرة بنظرة متلهفة , بينما كانت تقف زوجتُه وابنتُه بروج ولكنها لم تبالِ إلا بالزجاجةِ على الطاولةِ بجانبِ السرير واختطفَتها وفرَّتْ فتساءلَ الشيخُ (يس) :

– ماذا تفعل روفان ومتى أتت؟؟

وسمعَ صوتُ البابِ ينغلقُ بالخارجِ فأردفَ:

– وإلى أين غادرَتْ؟

لكنها كانت كماكينةٍ متحركةٍ وهي تحملُ الزجاجاتِ في جوالٍ كبير وتركضُ وبرغم تعثُّرِها فيه إلا أنَّها قاومَتْ إلى أن وصلَتْ..

تركَتْ جوالَها يسقطُ أرضًا من على ظهرِها وتطلعَتْ لفراسٍ الذي كان يستلقي على أريكتِهم الخشبية بجانبِ الحوضِ فقالَ لها واثقًا:

- وصلتُ قبلَكِ.

أغمضَتْ عينيها مستسلمةً للخسارةِ ثم رشَّتْ وجهَها بالماءِ من الحوضِ وقالَتْ باستنكارٍ:

- أنتَ تغش فبينما كُنْتُ أدورُ بالبلدةِ كنتَ أنتَ تأمر الخادمين عندَكم بجمعِ زجاجاتِ الماء الفارغة منكم، أنتم عائلةٌ تشربُ المياهَ الغازية باستمرار.

هبَّ معترضًا:

- أقسمُ لكِ جمعتُها أنا.

سألته:

- كم جمعت؟

ضاقَت عيناه وهو يحاول التذكرَ ومن ثم قالَ غيرَ متأكدٍ:

- واحدة وعشرين أو اثنتين وعشرين.

قالَتْ محبطةً:

– أنا جمعْتُ ست عشرة زجاجة.

قال:

– لا يهم سنكتفي بالخمسِ وثلاثين التي معنا.

هزت رأسَها في إحباطٍ وقالَتْ:

– دومًا متسرعٌ بالإجابةِ ودومًا تكونُ خطأ.. فاشلُ الرياضيات..

وأشارَتْ على الحوضِ وسألته:

– هل هذه المياه نظيفة؟

أجابَ:

– أجل.. فقط استحممتُ بها.

تطلعت له محدقةً فأسرعَ يضحك وأضاف:

ا – لآن غيَّر الخادمُ المياهَ ووضعَ بها كلور انظري جيدًا.. الحوضُ جديد.. هيا قبل أن يأتيَ الليل.

بدأ الاثنان في غسلِ الزجاجات وتلميعِها بهمة وحماس ومن ثَمَّ ملئِها من الصنبور واخذا يتبادلان المهام والعجوز من اعلي يراقب عملهما

بنظرة دافئه اعادت له حياته الاولي وكأن العَجز جعل من حياته نصفين فكان يوما ما لا يقل حماسا عنهما ,يوما كان صبيا لا يخشي شئ لا يختبئ كاليوم خلف زجاج نافذته ,عجوز خائر القوة ,كذلك العَجز لا يقل جرما عن الاحتلال,يرغمنا علي الاختباء ,لم نعد نستطيع , تلك الحيل للوصول لهدف كان يبدوا واضح الملامح ,تحرير ارضا استعمرها الاعداء ومع الهزائم تضاعفت القيود فلم يبقي احتلال ارضا فقط بل ارضًا وحلمًا وروحًا كل يوم يزداد الاحتلال احتلالا واغمض عينيه .كم يحسدهما بقدر ما يشفق عليهما .هؤلاء صغار ،وليس جنود ,وان صدقت شجاعتهما ,لا يجدر ان يكون عملهما الحرب ....وبالنهايةِ تحت مراقبتة وقفا يتطلعان إلى نتيجةِ عملِهما فقالَتْ روفان:

– علينا أن نجدَ برادًا يسعُ كلَّ هذا.

اراح ما بيده واجاب حيرتها:

– سنوزعهم على براداتِ المنزلِ هنا، وإن تبقَّتْ زجاجاتٌ سنضعُها عند عمِّ أمين لديه براد كبير.

قالَتْ وهي ترتمي بجانب الزجاجات تطلق تنهيدتها المتعبة:

– وكيف سنحملُها والشمسُ شديدة الحرارة؟ مؤكد ستسخن.

اهداها ابتسامة مبشرة وهو يقول:

– سنستعيرُ دراجاتٍ من ابنِ عم أمين.

همسَتٍ له:

– ماذا لو التقطَنا والدُك أو إخوتُك؟

قالَ بثقةٍ:

– نحن نقومُ بعملٍ خيريٍّ نساعدُ فيه عمَّ أمين.

تطلعَت له وقالَتْ:

– وماذا لو وشى بنا عمُّكَ أمين؟

اتسغت ابتسامته الخبيثة:

– سنختبئُ عند ابنِه.

وهنا تبادلا ضحكةً طفوليةً طويـــلة.

# قلب شجاع

استيقظَ أهلُ بيتِ أمر في هذا الصباحِ كلٌّ منهم للقيامِ بهدفِه وعلى نحوٍ محددٍ استيقظَ روفان وفراس مبكرًا وحملا الزجاجات داخل القفَصِ الأمامي لدراجتيهما.. أخذا ما ملأَ القفصَ وانطلقا وعندما وصلا أسندا الدراجاتِ في مكانٍ آمنٍ وظلا يعملان حتى أتى وقتُ الظهيرة وكانت الزجاجات قد ذاب ثلجُها فأصبحت ماءً مشبرًا كما يريدانها وانطلقا في استراحتيْهِما.. كان وجودُهما في هذه اللحظةِ بمثابةِ حلمٍ للعمالِ بالمنطقةِ الصحراويةِ فلم يتفاوضوا كثيرًا بشأن سعرِها وباعوا كلَّ الزجاجات.

وبعد أن أنهيا عملَهما جلسا تحتَ ظلِّ شجرةٍ بالطريقِ وأخذا يحسبان نقودَهما فقالَ فراس:

– بِعْنا أربع عشرة زجاجة.

ولدينا الآن أربع عشرة زائد سبعة زائد تسعة..

قالَتْ:

– لا تتعجلْ، احسبْ بهدوءٍ واخرجْ بجوابٍ صحيحٍ فراس.

قال مترددا:

– أصبحَ معنا أربعون.

طمئنتة بابتسامة لجوابة:

– بلى بما ربحناه من المحل.

تحمس قائلا:

– غدًا سنعودُ لبيعِ بقيَّتِهم.

قالَتْ مبتسمة تشاركة الحماس برغم انهاكها الواضح:

– اتفقْنا.

ما من مخلوقٍ يقبلُ أن يملي أحدُهم على عقلِه ما لم يرضَ قلبُه وإن تعارضَ معه فهو يفَضّلُ أن يعارضَه بذاتِه.. لا أن يؤمر.. سيتحد قلبُه وعقلُه حينها فقط لرفضِ أحدِهم.

عادَ فراسُ للمنزلِ وهناك وجدَ أخاه يجلسُ بمدخلِ البابِ فقال حذرًا:

– مرحبًا أخي.

وأسرعَ ليدخلَ ولكنَّه أوقفَه بسؤالِه:

– فراس، أين كنت؟

أجابَ بدونِ أن يتطلعَ له:

– أحملُ حقيبتي ترى أين كنت؟

هبَّ أخوه واقفًا وقالَ في حزمٍ:

– لا تتحاذقْ عليّ، أدري أنَّكَ تحمل حقيبةً بها كتب جديدة لم تفتحْها، وأنَّكَ تقضي كلَّ وقتِكَ مع ابنةِ سالم تطوفان بالشوارعِ كالمتسولين.

قال فراسُ معترضًا:

– لسنا متسولَيْن نحن جنودٌ شجعان وسنحرّرُ أرضنا.

قبضَ على قميصِه غاضبًا وهتفَ:

– من يُسْمِعُكَ هذه الشعارات يا ولد؟

صالح!

– تطلعَ الاثنان عندما هتفَ والدُهما واقتربَ هذا الأخيرُ وتطلعَ لصالحٍ في صرامةٍ وقال:

– لمَ تُمسِكُ قميصَ أخيك هكذا؟

تركَ قميصَ فراسٍ وقال:

– هذا الغبي لا يذهب لمدرستِه بل يظلُّ يطوفُ بالقريةِ برفقةِ ابنة (سالم يزن) عليكَ أن تحتجزَه هو أيضًا.

بدا أن كلمتَه الأخيرة ضايقته فأخذَ نفسًا من أرجائِه وأكملَ خطواتَه إليهما.. انحنى يعدلُ قميصَ فراسٍ وسألَه:

– كيف حالُ روفان؟

ابتسمَ فراسٌ وقالَ:

– هي تجتهدِ مثلي كي نحررَ أرضَنا أبي.

ربَّتَ عليه وسأل مهتمًا:

– ولمَ تريد تحريرَ الوطنِ أنتَ وهي؟

أجابَه ببساطةٍ:

– كي تنتقمَ منهم لأنَّهم أحرقوا والدتَها وبيتَها.

أومأ برأسِه وعاد يسألُه:

– وأنتَ؟

أجابَ سريعًا:

– كذلك لأنهم أحرقوا والدتَّها وبيتَها.

صمتَ بعد سماعِه وشردَ للحظةٍ ثم تطلعَ إليه وقال:

– فراس صغيري، أنا لا أريدُ أن أراكَ لا طبيبًا ولا وزيرًا فقط أريدُكَ حيًا، وهذا انتقام روفان وليس انتقامَكَ وهكذا لا يحقُّ لكَ أن تكونَ جنديًّا، عليكَ سماعُ قولي والالتزام به، أنا لن أحتجزُكَ لأنني لا أحتجزُ أبنائي، فقط سأدعُ أخاكَ يوصلُكَ لمدرستِكَ ويعيدُكَ كلَّ يومٍ.

ارتسمَتْ ملامحُ الضجر على وجهِه بينما ابتسمَ صالح وأومأ موافقًا وربتَ عليه والدُه وقال:

– هيا انطلقْ حتى تغتسلَ وتتناولَ طعامَك.

سارَ فراسُ بخطواتٍ يائسةٍ وعند البابِ استدارَ وقالَ متسائلًا:

– متى يمكنُني أن أصبحَ جنديًا يا أبي؟

صمتَ والدُه وبادلَ نظرةً مرتبكةً مع ابنِه صالح بينما أشاحَ فراسُ بوجهِه في إحباطٍ وجرَّ قدميْه للداخلِ وكأنه يدري أن لا إجابةَ عند والدِه.

# الفراق

في صباحِ اليومِ التالي حملت روفان حقيبتَها وهمت بالمغادرةِ سريعًا إلا أن الشيخَ (يس) أوقفَها وقال:

– انتظري أريدُ التحدثَ معكِ.

أشارَتْ له في لهفةٍ:

– ألا يمكن أن تتحدثَ بعد أن أعودَ أنا مستعجلة.

اشار لها بالإقتراب قائلاً:

– لا إنه أمرٌ هام، يخص فراسَ رفيقَكِ.

هدأت بغتةً واقتربَتْ منه وقالَتْ بصوتٍ قلق:

– هل قابلْتَ عم أمين؟

لم يبالِ بقولِها وقال:

– مساءَ أمسٍ جاء والدُه إلى هنا وتحدثَ عن أمنِ ابنِه.

توقف وقد أحسَّ أن كلماتَه لا تصل لعمرِها ففكرَ قليلًا ثم اردف:

– فراس سيذهب ويغادر للمدرسةِ برفقةِ أخيه في سيارتِهم وأنتِ ليس عليكِ انتظاره ليصطحبك.. جاء والدُه كي يُعلِمَكِ حتى لا تفوتين موعدَ مدرستك و...

توقفَ أمام صمتِها ونظرتِها التي شاخت فجأةً فقال بشفقةٍ:

– حسنًا أنا أيضًا سأوصلُكِ لمدرستِك.

ولكن لم تلبثْ أن ابتسمَتْ بغتةً.. بسمةً فاجأته، وركضَتْ للخارج ولحقَها في تساؤلٍ وهناك راقب في دهشةٍ وهو يقترب.. كان فراسُ يركبُ دراجتَه ويمسك أخرى وروفان تقفز قائلةً في سعادة:

– عرفْتُ أنكَ أتيتَ عندما سمعتُ صوتَ ارتطامِك بالبابِ أنتَ دومًا تدخل بالدراجةِ في بابِ المدخل.

قال مبررًا:

– هو من يقفُ أمامي.

أسندت الدراجةَ الأخرى وسألته:

– لمَ لم تحضرْ باقي الزجاجات؟

أجاب:

– حاولْتُ ولكني لم أستطعْ أن أقودَ الدراجةَ وأمسك بأخرى وأحمل الزجاجات.

وهنا وصلَ إليهما الشيخُ (يس) فغمزت له كي يصمتَ ولكن الشيخ (يس) اكتفى بنظرةٍ صامتة إليهما أعقبتها تنهيدةٌ من أرجائِه وتجاوزهما.

وأسرعَتْ تركب دراجتَها وقالَتْ:

– لنحضر الزجاجات التي ببرادِ العم أمين.

بدأ يفكرُ قليلًا كما لو كانت خطوتَه الأخيرة امتصت كلَّ شجاعتِه.

فأردفت متفهمةً:

– سآتي سريعا وأنتَ انتظرْني عند محل الـ...

قاطعَها وهو يتحرك بدراجتِه:

– لنرى من سيسبق لمحل عم أمين.

ابتسمت وأسرعت تركبُ دراجتَها وانطلقا.

دخلا حيَّ البراق في كثيرٍ من الحذرِ حتى وصلا لمحلِّ العم أمين وتمكنا من أخذِ الزجاجات في سرعةٍ وانطلقا سريعًا.. لم يكادا يخرجان من الحي حتى ظهرت سيارةُ صالح خلفَهما فصرخ فراس:

إنه أخي صالح، لنفلتْ.

ازدادت سرعتُهما ولكن السيارة كانت أسرع وبدت خطواتُهما كأنهما مستعدان لهذا فبمجردِ أن اقتربَتْ السيارةُ غيروا طريقَهما واتجها للأزقةِ الضيقة وتوقف صالحُ وخرجَ من سيارتِه في غضبٍ وضرب بابَها وهو يتابع فراس ينطلق أمامه في الزقاق.. وشهقَ فجأةً في اللحظةِ التي اصطدمت دراجتُه بسيارةِ الاحتلالِ القادمة بالاتجاهِ الآخر عند نهايةِ الزقاق.

أسرعَ نحوه راكضًا في فزعٍ بينما خرج سائقُ السيارةِ الجيب الصهيونية وأسرع نحو فراسٍ وقبضَ على قميصِه ومن ثم طرحَه أرضًا وصاحَ بعربيةٍ ركيكة:

– غبي، فلسطيني غبي.أيها الغبي.

التفَتَ الجندي لصاحبةِ الصوتِ الغاضب بعيون غاضبة تلقى فيهما فجأة ضربةً قوية قريبةً مؤلمة.

ثلجة..تبعتها ضربة اخري فجرت من فمِه دمًا ساخنًا عندما سحقت وجهِه بزجاجةَ الماء التي بدَتْ كالصخرة دمرت حواسه.. لم يدرِ الجندي شيئًا,ولم يعد يستدرك أي شئ وانحنى ألمًا وهو يغطي وجهَه بكفية وهنا وصلَ صالحُ وانحنى لأخيه فتطلعَ له فراسُ في خوفٍ وهتفت به روفان وهي تتاهب بالزجاجة الثالثة:

– إياك أن تضربَه.

ولكنه أسرع يحملُه وركضَ به إلى السيارة مستغلًا ما جرى للجندي وفراس يهتف بألمٍ وهو يحاول رؤيتَها:

– اهربي روفان.

انطلقَ صالحُ بالسيارةِ وفراس يرقدُ بالخلفِ وبرغم ألمِه وشعورِه بالدوار الذي جعل صورةَ روفان وهو يتطلع لها عبر الزجاجِ الخلفي غيرَ واضحةٍ وهي تلحقُه بالدراجةِ، وتبادلا من خلالِه نظرات.

شكوى. وقهر. وهلع.

تباعدت شيئًا فشيئًا كلما أسرعَتْ السيارةُ ولكنها حاولت ألا يغيبَ

عن نظرِها، كذلك هو حاول جاهدًا أن يحرسَها بعينيه فما من وسيلةٍ بيدِه ولعنَ ضعفَه الذي انتصرَ فغاب عن الوعيِ رغمًا عنه بملامحَ مقهورةٍ، ووقع قلبُها خلف ضلوعِها عندما لم يعد يتطلع لها وأحست بثقلٍ في أطرافِها جعلَها تبطئ سرعتَها لتتجاوزَه نبضاتُ قلبِها سرعةً وترتد تائهةً وللحظاتٍ تركت الدراجةَ تسير لوحدها.. ولم تلبثْ أن ضربَتْ الدراجةَ بالأرض وأعادت فيها رباطة جأشِها عند انحدارِ سيارة فراس عن أنظارِها فعادت تتبعه بإصرارٍ لمنزلِه وزادت سرعةً.. وهناك حملَه أخوه إلى الداخلِ واستقبلَه إخوتُه في هلعٍ وبالنسبةِ لها كانت رؤيةُ الطبيبِ وهو داخل لمنزلِهم أكثرَ ما أثار هلعَها وكان آخرُ ما رأته وهي تنتظر ضامةً ركبتيها إلى صدرِها تحت البيتِ المقابل لمنزله.

ومن أعلى راقبَها والدُ فراس بنظرةٍ شاردة حزينة.

# من بين عشرة

كانت الشمسُ في رحلتِها إلى الغروبِ.

بينما كان جعفرُ شقيقُ فراس يمر بجانبِ نافذة الحجرةِ التي اجتمعَ فيها هو وصالح وأنس.. توقفَ وطلَّ للخارجِ ثم قال:

– مازالت ابنةُ يزَن تنتظر بالخارج.

ووقفَ أنس يلقي نظرةً ليسأل:

– منذ متى وهي تنتظر؟ ألم تمل!؟

قال صالحُ شاردًا:

– لا أدري ماذا أسمي هذا؟

تعجب جعفر قائلا :

– لو اتبعَتْ روفان أباها مثلما تتبع أخانا لأوقعت به منذ زمن.

تنهدَ صالح وقالَ:

– رأيْتُ اليومَ تصرفًا عجيبًا من ابنةِ يزَن عندما هاجمَ الصهيوني فراسًا.

التفتَ إليه إخوتُه ينصتون في اهتمامٍ وهو يردف:

– أنا لم أرَ قبلًا ماذا يفعلان دومًا معًا، ولكن ما من شيءٍ يدفع طفلةً لتهاجمَ بهذه القوةِ والشجاعة إلا لو كان هامًا.. هامًا جدًا.

وابتسمَ وهو يضيف ساخرًا:

– ربما كان حبًا.

وأضافَ جعفرُ بنفسِ السخرية:

– فعلَها أخونا الأصغر من بينِ عشرةِ رجال.

ألقاهم أنس نظرةً يائسةً وجلس بمقعدِه ليهمس اخيراَ:

– لن تفهموا أبدًا علاقةَ هذين الصغيرين.

# الألعاب النارية

كاد قرصُ الشمسِ يختفي تمامًا خلفَ الأفقِ بينما مازالت روفان تنتظرُ مكانَها.. شاردةً بالنظرِ إلى الأرضِ كما لو كان عالمًا خفيًّا تراه فشغلَها عن الاختباءِ خلفَ الجدران كعادةِ بلدٍ استوطن الاحتلالُ ليلَه ونهارَه.. عالمٌ ساحر برقَتْ له عيناها فتارةً تبتسم وتارةً تهمسُ بكلماتٍ تحدث عالمها هناك.. عالمٌ آمن لا حربَ ولا خوفَ ولا اختباء.. عالمٌ لن تضطر لأن تغربَ فيه بصحبةِ الشمسِ خوفًا..

– ألم تشعري بالجوعِ يا ابنتي؟

رفعَتْ رأسَها وشدت قامتَها سريعًا عندما وجدت والدَ فراس يقفُ أمامَها فتراجعَتْ للوراءِ ولكنه ربت عليها وقال:

– تعالَيْ لقد صنعَتْ زوجةُ عمِّكِ أم صالح (الكعك بالسكر) .

قالَتْ ببراءة: بروج تصنعُه أيضًا، فراس يحبه.. وأنا أيضًا.

ابتسمَ لها وقالَ: لهذا وضعْتُ لكِ طبقًا مع فراس، ستجدينه بحجرتِه أسرعي قبل أن يأكلَه فراس.

قالَتْ وهي تركضُ للداخلِ متلهفةً: سأضربُه إن لمسَه.

كأن العالمَ توقفَ لأجلِها وسمح لها بالركضِ بمفردها لتصلَ أسرع حين ركضَتْ متجاوزةً الجميعَ بالمنزلِ الكبير.. تساءلوا بنظراتِ الدهشة وهي تركض غيرَ مباليةٍ نحو غرفةِ فراس بلهفةٍ لا حدودَ لها.. لهفةٍ حقيقية.. لم تبرزْ فقط كونها طفلة يعتلي الصدقُ مشاعرَها لكن لأن الجميعَ يدركُ أن ثمة ما هو عظيمٌ بين هذين الطفلين.. أمرٌ لم يستطعْ لأجلِه أحدُهم أن يشككَ بها ولا أن يعترضَها.. لهفةٍ مدَّتْها بقوةٍ فأخذت السلالم الرخامية بخفة.. كما لو كانت تحلق من بينِهم.. لأجلِه.

وهناك وضعت الخادمةُ صينيةَ الطعام بجانبِ فراس فقال بدونِ أن يتطلعَ لها:

- لا أريد.

فرفعتها وهمت بالمغادرة.

وهنا قفزت للحجرةِ روفان كما لو كانت ألعابًا نارية بالسماءِ تطرق

فجأةً بالمكان وهتفت:

- فراس إياك أن تكونَ أكلْتَ من طبقي.

التفتَ إليها وتهللت أساريرُه برؤيتِها كما لو كانت حقًا تلك الألعاب فبرقت لها عيناه وقال بعفويةٍ باسمًا:

- أين طبقك؟

قفزت ووقفت على سريرِه لتعلو وحملت طبقَها من على صينيةِ الطعام التي تحملُها الخادمةُ وقالَتْ:

- هذا.

تطلع للطبقِ وشهقَ بطفوليةٍ :

- حلو!!!

وتطلعَ للخادمةِ وسألَها سريعا:

- أين طبقي؟

ابتسمت له تلك الأخيرةُ باندهاشٍ عارم لتغيرِ حالتِه كليًا وناولَتْه طبقَه.. بينما جلست روفان على سريرِه أمامه متربعةً وراحت تتناول من طبقِها بنهمٍ وهي تقول:

– طعمُها لذيذ.

وتطلعت لطبقِه وقالَتْ:

– لنتفق من ينهي طبقَه أولًا يأكل من طبقِ الآخر.

أدارَ الأمرَ برأسِه في شكٍ ومن ثمَّ حدَّقَ مستدركًا وقال:

– لكنّي مريض، انظري لكدماتِ وجهي وذراعي، كما أنني أشعرُ بألمٍ في كتفي.

هتفت:

– ١–٢–٣ بدأنا.

رمقَها بنظرةٍ معترضة وقال:

– هذا ليس عادلًا.

هزت رأسَها بلا مبالاةٍ وهي تتناول طبقَها فلم يجدْ حلًا سوى أن يتناولَ من طبقِه بدورِه في سرعة.

# حيرة وخوف

كان القمرُ في هذه الليلةِ مكتملًا حين جلسَ والدُ فراس تحتَ شجرتِه باستراحةِ منزلِهم الكبير وجاءَ والدُه العجوز وجلس بجانبِه ولم يلبثْ أن قال:

– رأيتُ روفان ابنة يزَن بالمنزلِ تركض كالفراشات، تذكرتُ نسيم عندما كانت بعمرِها.. كانت جميلةً ومرحة ونشيطة مثل روفان.. بنات فلسطين لا يستحقون الاحتلال.

أغمضَ البراقُ عينيه في ضيقٍ بينما تنهدَ الجدُّ واستطرد:

– كنتُ واثقًا أن روفان ستدخل لرؤيةِ فراس ولكني لم أفكرْ في الطريقةِ ولم أصدقْ حين علمتُ أنكَ من فعلَ ذلك.

تطلع البراق لوالدِه واكتسى وجهُه بسخطٍ مفاجئ وبدا وكأنه صبيٌّ وهو يقول:

– لستُ قاسيًا يا أبي، ابنة يَزَن كابنتي نسيم ترغبُ بأبيها ولا تستطيع أن تملكَه.. سالم ليس لأحدٍ ورفقتها لفراس أمرٌ لا يمكنني التحكمَ به.

واضاف حائرًا :

– أو أنني تعبتُ من محاولةِ إبعادِهما، هما ونسيم وسالم.. يكفي عليّ كسرُ واحدٍ من أبناءِ (زهيرة).

استرد أنفاسَه وكأنما عادت بعد تعبٍ من التجديف بقاربِه بين أمواج ثائرةٍ للوصولِ لبرٍ آمن وتمنى لو كان أحسنَ اختيارَ المرسى ولكنه حائرٌ وخائف.. وغارق.

يا ليتَه يستطيع الحلم، يا ليته يستطيع أن يفيقَ كيفما يشاء.. ليته يستطيع النجاةَ بأحلامِ صغارِه من غيبِ القضاء.

# نجوم وأقدار

استلقَتْ روفان مكانَها.. كذلك استرخى فراسُ وتأملا سقفَ الحجرةِ فقالَتْ بانبهار:

– لديك نجومٌ بسقفِ حجرتِكَ لم أرَها قبلًا.

ابتسم لانبهارها وقال:

– أنا أتطلعُ إليها كلَّ يومٍ قبل أن أنامَ.. حين تُطفَأ الأنوارُ تضيء النجوم.

احبت ما قاله فهمست مبتسمة باعجابْ:

– أنت لا تخاف حين تنقطع الكهرباء.

قالَ:

– لدينا موتور كما تظل غرفتي منيرةً بالنجوم.

تلاشت ابتسامتها وهي تقول:

– أنا أخافُ من الظلامِ، أنامُ بحجرةِ بروج هي تضمّني كي لا أخاف، ولكنها تحلم بكوابيسٍ مزعجة تخيفُني أكثر.

وشردَتْ بالنجومِ وأضافت:

– لو كانت أمي هنا لكانت هي من ضمَّتْني.

قال:

– وأنا أيضًا أتمنى لو أرى أمي حقيقةً، أتخيلُها أنها تخرجُ من الصورةِ وتضمني وتلعب معي.. أنا أحدثُها عنكِ كثيرًا وأخبرُها أننا سنحررُ الوطن، أتخيلُها تصفقُ لي وتشجعنا حتي نحرقَهم جميعًا.

قالَتْ ببساطةٍ وكأنها تعزي نفسها:

– أنا لا أحلمُ بأمي.. لأني لا أعرفُ شكلَها.

أحسَّ بحزنِها برغمِ محاولتِها لتجاوزِ ذلك فأشارَ إلى النجومِ وقال:

– هذه النجمةُ الزرقاءُ هي أمُّكِ وتلك الخضراء أمي.

تطلعت لهما فقالَتْ:

– لا أمي هي الخضراء.

هتف باعتراض :

– لا تأخذي أمي.

قالَتْ:

– حسنًا أمي النجمةُ البيضاء.. البيضاء أم الزرقاء أجمل؟

لا يبالغُ في الامرِ سوي من يدركُ ابعاده.

لطالما كان كل البشر حاملون لغصةِ سرحت بفؤادهم بعيداً..

لطالما كان الشعور يرتدي قناع..عنوانهُ تنهيدة وفصلته دمعة..ونقطته اغماض عين.

من يدري ان لكل منا غصة او كانت ..او ستكون.

لا يوجد سعادة مكتملة لانه لا يوجد كمال في الدنيا .

حضرَ الشيخُ (يس) واستقبلَه البراق ووالدُه ورحبوا به وجلسوا ثلاثتَهم

يشربون الشاي وسألَ الجد:

– كيف حال ابنتي بروج؟

أجابَ الشيخُ (يس) في حسرةٍ عانقت نبرتَه:

– شابةٌ ترتدي الأسودَ على شاب كُتب زوجَها وقتل قبل زفافِها بيوم.. لقد لوَّن الصهاينةُ ابنتي بالحزن.

تنهدَ البراقُ في أسى بينما ربت الجد على كفِّ الشيخِ (يس) وقال:

– لا تحزنْ، أخبرْها أن زفافَها بالجنةِ ينتظرُها، هو لها وهي له ما دامت لا تريد غيرَه.

وعادَ ليسألَه:

– وكيف حال (أقسم) ألن يعودَ قريبًا؟

أجاب:

– لقد أبعدتُه كي لا يكملَ الصهاينة على تسويدِ نفسي على أبنائي، ما معي غيرَه يا شيخنا.. فليعِشْ بعيدًا وليبقَ قلبي حيٌّ مهاجرٌ معه.

أومأ البراقُ برأسِه موافقًا وقال:

– على قلوبِنا أن تهاجرَ لتحيا.

تأملَ الجدُّ كلماتَهم وقال واعظًا:

– عشْتُ بأرضٍ محتلةٍ ثلاثة وثمانون عامًا كنتُ فيها ما بين الفرِّ والكرِّ، ما هدأتُ أمامَ سيارةٍ مارة للصهاينة، وما تركتُ جنديًا بحالِه، ما استطاعوا اعتقالي ولا مرة وكذلك لم تصبْني رصاصاتُهم.. وها أنا كما ترون عجوزٌ أجلسُ معكم.. هي أقدار.. لا الهجرة ولا الحذر يغيران القدرَ.. فقط نحن نقدر أن تحدثَ الأقدارُ بعيدًا عن أنظارِنا.

صمتا لقولِه واكتفيا لقناعتِهما فكانت أعماقُهم تمتلئ خوفًا جاوزَ كلَّ وعظ.

# وفي الصباح

أسندَ فراسُ رأسَه وهو يترقب الشارعَ من نافذةِ حجرتِه وهو يقول بدونِ أن يتطلعَ إليه: أريدُ الخروجَ للذهابِ للمدرسةِ يا جدو.

قال الجد ضاحكًا بمقعدِه:

– ألن تبطلَ حجتَكَ المتكررة؟

لم يعلقْ على قولِ جدِّه وظل يترقب الشارعَ فقال الجد:

– لن تأتيَ اليوم روفان.

تطلعَ له في تساؤلٍ وقال:

– من قالَ لك؟

ضحك الجدُّ وقالَ:

– أخيرًا التفتَّ إليّ، تعالَ إلى هنا يا بني، ألم تؤلمك ذراعُكَ من جلستِكَ هذه؟

عادَ يسألُه:

– هل أخبرَتْك أنها لن تأتيَ أم أن أبي رفض؟ ولكنه سمحَ لها، كيف لا يسمح لها اليوم! روفان رفيقتي و...

قاطعَه الجد:

– كفي فراس، فقط أتَتْ في الصباحِ وسألت عن حالِكَ وأخذت الزجاجات من البرادِ وغادرَتْ فأدركتُ أنها راحت تكملُ ما تقومان به.. مؤكد ستأتي بعد أن تنتهيَ من دوامِها كما تسميانه.

عقد فراس جبهتَه وقال:

– كيف تذهب بدوني!

قالَ الجد:

– فتاةٌ عاقلةٌ تدري أنكَ مريض.

جلس على فراشِه وتمتم:

– وماذا سأفعلُ بمفردي؟!

أحسَّ الجد بالوحدةِ في صوتِه فقالَ ضاحكًا:

– سننتظرها جدو.

# نسيم

بدَتْ أشبه بأميراتِ الأحلامِ حين ارتدَتْ أميرة الواقعِ نسيم فستانَها الأبيض ووقفت أمام مرآتِها تتطلع لنفسها.. ووقفَ فراسُ يتطلع إليها عند البابِ وقارن برؤيتِها أميرات قصصِه حين تزيَّنَّ جميعًا بفساتينهم المبهرة وطلّاتِهم التي تمادى الخيالُ بوصفِها فلم يُعرفْن أميراتٍ إلا بفساتينِهن ولكنها كانت أميرة بلا رداءٍ مزين، فما بالك ها هي أميرة أميرات بيتِهم ترتدي لونًا جديدًا عنهم هزمَ كلَّ مقارناتِ الجمالِ التي احتارَ فيها الخيال.. هذا ما دارَ برأسِه عند رؤيتِها.

رأَتْه عبر المرآةِ أمامها واستدارت إليه وقالَتْ:

- تعالَ فراس.

اقتربَ إليها فسألته:

- كيف حالُكَ اليوم؟

أجابَ:

- أنا بخير.

قبَّلت جبينَه فلمسَ فستانَها بحذرٍ وكأنه يخشى خدشَه وسألَها:

- هل ستتزوجين البطل سالم؟

أجابت حالمةً:

- أجل.

اردف بشغف:

- ستأخذينَني معكِ بالبيتِ الجديد، أنا وروفان؟

قالَتْ بنفسِ شغفِه:

- بلى.

قالَ بسعادةٍ:

- عندما نسكن في البيتِ الجديد روفان لن تخافَ لأننا كلُّنا معًا.. كذلك سنبني بيتًا لجروي أنا وروفان.

وفكر للحظةٍ وبدا كأنه تذكرَ أمرًا هامًا فركض سريعًا لغرفتِه..

وفي ذاتِ اللحظةِ سقطَ حجرٌ بغرفتِها من النافذةِ فالتفتَتْ سريعًا إليه، كانت ورقةً مربوطة بحجرٍ أسرعت تتفحصها.

وابتسمت عندما قرأت كلماتَها.

**"لاقيني سريعًا.. حان الوقتُ لتكوني زوجتي".**

اتسعت ابتسامتُها شيئًا فشيئًا وتطلعت لساعتِها ولم تلبثْ أن تسللَتْ لغرفةِ والدِها بفستانِها وأخذت هاتفَها وهمت لتتصلَ منه ولكنها همست:

- لا.. لا هواتف.

والتقطَتْ مفاتيحَ السيارة.

وأسرعت للخارجِ خلسةً من البابِ الخلفي وركبت السيارةَ وانطلقت بها.

توقفت في ذلك المكانِ المهجور بفعل الصهاينة ..هجرً لشبر خلف شبر الي ان يحتلوها باكملها ,متسللين باطماعهم مشهرين مدافعهم رافعين شعار بارضنا التي البسوها رداء مزيف ..الموت لنا والحياة لهم ..وأسرعت لداخلِ ما تبقى من منزله القديم وهمست عند دخولِها:

- سالم؟

وبحثت بغبطة تسال نفسها كيف هي ملامحة حين يراها بالفستان الأبيض وهي ما زالت تهمس:

- سالم.. لقد جِئْتُ.

توقفت مكانَها ..وأغمضت عينيها كعرض اغلقت ستائرة للنهاية .. نهاية لعرض مهيب ,سحق قدرتها علي الوقوف فقاومت نفسها تشد من ازرها بثبات ,تملي علي نفسها القوة فغلبتها رعشة طافت بحسدها اخفاها فستانها الابيض المنفوش, فقبضت علي اطرافه تتمني التحليق ,الاختباء, تمكن الخوف منها برغم محاولاتها ,وولجَ الرعب اليها مهرولاً ف انهار كل شئ بلحظتها مرة واحدة انهيارا سحق روحها,حين أدركت كلَّ شيءٍ في لحظةِ سماعِ صوت تكة المدفع خلفَها وخلفه صوت تعرفه جيدًا وهو يقول:

- وردتي الذهبية.

جدارٍ قوتها انهارَ بلحظةٍ داخلها فبهت وجهها واعتلي الزعر ملامحها وبوجهٍ خافت استدارت لتجدَ (إلخاموريل) وجنديين آخرين يوجهان مدفعهما إليها في تأهب.

وأردف موريل بطريقةٍ زجلة:

– أوه.. ماذا أتمنى بعد رؤيتكِ بفستانِ الزفاف!

صاحَ بها الجندي بالإنجليزية:

– اتصلي بسالم.

تطلعَ له (إلخا موريل) وقال:

– ألا تراني أتحدث؟ أنا لم أنتهِ بعد، هل كان عليكَ إضجارها وإضجاري هكذا أيها الزميل!

وزفرَ ثم أضاف :

– حسنًا لقد عكّر مزاجي سريعًا.

وأشار لها بلامبالاة امرًا بثقةٍ وشماتة:

– هيا اتصلي به.

اتكأت علي ما تبقي من قوه بها فقالَتْ متحديةً متصديةً:

– أتصلُ بمن؟!

صوبَ الجندي على اليمينِ مدفعَه نحوَها وصاح بالعبرية:

– إرهابي سالم يزن!

ورمقَّها الآخرُ بنظرةٍ مستنكرة وقال بعربية:

– عشيقك.

أحنى (إلخا موريل) رأسَه وبدأ يتصنع التأثرَ :

– لا تقل هذا.. أنتما تضجراني باتهاماتِكم لوردتي.

وطلَّتْ من عينيه نظرةٌ لئيمة غادرة وهو يقترب نحوَها مردفاً بصوت خفيض ضرب مسامعها :

هي فقط ستساعدُنا لإنجاحِ مهمتي وإلقائه خلفَ القضبانِ يلقى جزاءه.

وأضافَ بأسلوبٍ بيّن عن قذارتِه أكثر:

– وتكون هديتي..

ثم مالَ إليها هامسًا:

– لا يقتصر الأمرُ على أوامرِ القادة فهناك رغباتٌ أخرى.

وقبضَ على كفِها بالهاتفِ وقال في وحشيةٍ:

– اتصلي به.

غريبةٌ هي تقلبات المشاعر.. يخشى المرءُ ما يحتمل أن يحدث.. فيتخيله برأسِه فيلمسه فيرتعب وتزداد خشيتُه.. فيعيشَ مرتعبًا..قلقًا.. تتسللُ الفوضى في أعماقِه.. مدركًا أن الأحزانَ المتوقعة أكثرُ من السعادة الممكنة.. فذلك الخوف الذي يتسلل دومًا من ثغرِ السعادة.. كذلك الإحساس بالأمانِ في قلبِ الخوفِ هو ذاته تلك الابتسامة التي ارتسمت على شفتيْها في هذا الوقت.. فوضى من المشاعر.

فتطلعت إليهم بنظرةٍ حملت الكثيرَ ثم أومأت وتراجعت عنه هامسه:

– حسنًا.

تأملَها للحظةٍ في شكٍ ثم تراجعَ عنها وراقب..

اجرت اتصالها الي حبيبها وفارسها الذي اتكأت اعلي اعتاب حلم بجواره, علي يومًا معه دون حرب , دون خوف, دون احتلال ....ولم يمر الكثيرُ حتى اعادت ادراجها فوقفت امامهم بثبات لتقول لمحدثها مبتسمة بصغر جميل:

– عزيزي سالم. أنا سأنتظرُكَ كما تواعدْنا.. أحبُّكَ.

عقد موريل جبهتَه لقولِها واستشعر خدعتها وهم نحوها سريعًا ولكنها ضربت هاتفَها بالحائطِ أسرع.. بكل ما ادخرته من قوتها وتناثرت أجزاؤه....

وصاحَ الجندي بجنون:

- غبية.

وأطلقَ الآخرُ رصاصتَه.

شهقَ موريل وارتدَّ جسدُها بالحائط..

تطلعت بوجه مقمع للدماءِ تخر على فستانِها.. أرادت أن تخمدَ جرحَها كي لا تشوهَ فستانَها ولكن يدها تراخت وبدأ جسدُها بالارتعاشِ والدماء تكسو شفتيها بالحمرةِ والدموع تسارع الدماءَ من عينيها بانين خافت وهي تنزلقُ على حائطٍ اكتسى بالسوادِ فأظلمَ بياضُ فستانِها الأبيض.. الذي صُمِّمَ لأجلِها.

كم أحرقوا ودمروا وأسالوا الدماءَ.. يتموا ورملوا وعذبوا وأذاقوا من الرضيعِ للشيخِ المرارة، فلم يفرقوا بإذاقةِ جميعِهم طعمَ الاحتلالِ.. أحدثوا المجازرَ والمحارقَ وألقوا بالمعتقلاتِ لجحيمٍ في علمِ الغيب.. وخرجت كلُّ معاني القسوةِ والوحشيةِ واللا آدمية تصفُهم.. إنهم قومٌ اختُصِرَ وصفهُم بالصهاينة، فبات كلُّ قذرٍ بالعالم صهيوني وأصابَ المعنى أدقَّه.. فلملم لفظُ صهيوني كل فتاتٍ من القذارةِ والدناءةِ والوحشيةِ.. فخرجت المعاني تنهرُهم وبقي تساؤلٌ يحيرُ كلَّ من بقلبِه ذرة من الرحمة:

- كيف ينامون؟؟مؤكد غير بشر.

تراجعَ الجنديُّ بابتسامةٍ حمقاءَ ظافرةٍ فقد ربح ذنبَ روحٍ جديدة من أرواحٍ طاهرة فكانوا أكثرَ من الثلج ببرودِ دمائهم.. فلم يبالوا بألمِ أحدٍ صوبوا مدافعهم وخرقوا جسدَه.. أو مزقوه بقنابلِهم.. لم يراعوا روحًا.. كانوا كآلاتٍ بعيدة عن البشر.. آلات قذرة تحملُ أسلحةً لقتلِ البشر.. كانوا صهاينةً من عالمٍ قذر.. هكذا وجهُه.. إنه الصهيوني الغادر.

وصرخَ موريل بجنون:

– دمرْتَ مهمَّتي أيها الذكي!

سألَه الآخر:

– ماذا سنفعل الآن؟

قال متعصبًا :

– لم تخبرْه أنها هنا تلك السافلة.. ولم يعلمْ أحدٌ بقدومِها وإن أتى أحدٌ فمؤكد سيكون من أهلِها وسيمزقوننا إن أمسكونا.

وأشارَ لهم ثائراً :

– لنغادرْ.. تبًا لك بعد أن عرفنا أين يأتي! اللعنة!!

وفروا للخارجِ ولكن موريل توقف ليلقي نظرةً عليها بغيظٍ وتحسر وتمتم:

– كنْتُ سأقتلُها بأي حال.. تبا!

# زفاف

علا صوتُ الدفوفِ بمنزلِ البراق وتأمل هذا الأخيرُ الحفلَ لليومِ الأول بعيون زهوًا عظيم نظرة ما بين نافذة اميرتة تعلو عرش قصره و بين حشد المباركين الذين تناثروا بارجاء ساحة قصره الكبيرة وصاحَ بحماسٍ: اذبحوا عجلًا كلَّ ليلة.

هتفَ صالح: ستذبحَ سبع عجولٍ يا أبي؟!

أجابَ بحماسٍ عظيم تربع في اعماقة فخرج بكلمات التفت لها الحشد بصوته القوي : بلى إنه زفاف نسيم بنت البراق.

# رسائل

**"عزيزي سالم. أنا سأنتظرُكَ كما تواعدْنا.. أحبك".**

تلقى رسالتَها المسجلة.. وتساءلَ في نفسِه لمَ لَمْ تتصلْ وما لبثَ أن أدركَتْ نفسُه وأجابت لقلبِه في خوف كان يسكنُه منذ رؤيتِها أول مرةٍ ,,,,,,وانطلق سريعًا ..إليها.الي حبيبته.

دخل سالمُ إلى ما تبقي من بيتِه مسرعًا يحيطه الخوف وتعتليه مشاعر الرعب لاول مرة ..يناجي ربه بقلبه بالا..... وتسمر مكانَه..

وفي الوقتِ ذاته ركضَ فراس للأعلى مسرعًا واقتحمَ غرفتَها هاتفًا:

- نسيـــــــــــم.

عندما أستطيعُ وصفَ سعادتي سأكون قادرًا على وصفِ حزني.. وإن استطعتَ يا حزن أن توصفَ فأنا أجهلُ وصفَكَ الآن..

كم أنت قاسٍ يا ألم على قلب شجاع..

تأملَها بفستانِها الذي غرقَ بدمائِها..مطرقة ضربتةقلبه فهمس بغير وعي يعتصر

– ماذا فعلتِ!

وسقط امامها علي ركبتيه تنتفض الارض به كانهيار عنيف يلمس فستانها غير مصدقًا..غارقًا بمشاعر كابوس

تناثرت أوراقُها بغرفتِها من الهواءِ القادمِ من نافذتِها.. وأسرعَ فراسُ يجمعُ أوراقَها وسرق نظرُه كلماتِها..

''فارسي وبطلي..''

مررَّ سالمُ كفَّه على فستانِها برقة.

''كنْتَ نجمًا بحياتي يا سالم.. نجمًا لا يعتم ولا يختفي بل تزداد لمعانًا كلما أظلمت السماءُ حولَنا، لم تتُه مني أبدا لأنني أراقبُكَ دومًا، أنت لا تختفي عن نظري ليلًا أم نهارًا.. ميزتني بك.. كنت رجلًا لم يتخلَّ

عن حبيبتِه برغمِ الحصار، كنتُ أظن أنكَ مع الوقتِ ستتركَني كي أذهبَ لتحميَني، ولكن لو فعلت لأفسدتَ معالمَ حقيقةِ رجلٍ أحب، كنْتَ بقلبي سلامًا للأبد..''

حملَها بين ذراعَيْه.

''من يدركُ سعادةَ الموتِ لو كنتُ لغيرِك.. حينها سيكونُ الموتُ تحررًا يا نجمي..''

''لن اكون لغيرك..فأنا مقيمة علي اعتابك''

انكتمت أنفاسُ الجميعِ في هذا الحيِّ المزدحمِ وتناثرَ الهلعُ في نفوسِهم حين رأوا سالمَ يحملُها بدمائِها مارًا بينهم.. فها هو يمرُّ بلا حذرٍ وها هي غارقةٌ بدمائِها.. يا ليت الظنون لم تحققْ.. وسقطت دموعُهم على مشاهدتِهم نهايةِ قصةٍ أنصتوا لمتابعتِها.

''أعدُكَ أنني لن أكونَ عروسًا إلا لك.. أنتَ بطلي''.

قامَ الرجالُ من مجالسِهم عند مرورِه وقفزَت النساءُ تهمسِ لبعضهن عن أكثرِ الأنباءِ إثارةً وفجعةً، وكل خطوة اقترب فيها من بيتِها ازدادت حسرتُه واعتصرت روحه.. فلقد غرقت كما كان يخشى منذ قررت أن تبحرَ معه.. نزف قلبُه ولم تعُدْ عيناه تخشى الضعفَ فسالت دموعه

متحررة من محجريهما .. سقطَتْ دموعُه على وجهِها وضمَّها لصدرِه أكثر..ضمة قوية, إنها الضمةُ الأولى والأخيرة.. ضمة وداع غمرها فيها بكل الآسي وهمس اخيراً بشهق بكاء استسلم لها

– احبك

وتحرك يجر اقدامه... وأمام حيّ البراق توقف.

همَّ فراسُ بالوقوفِ بعد أن لملمَ أوراقَها ولكنه التفتَ لورقةٍ..كان بها....

"أبي.. جدي.. أشقائي.. أخي.. كنْتُ بكم حرةً بوطنٍ محتل، وكأن الله انتقى لي الأفضلَ بالحياة فبينما كنت الفتاةَ الوحيدة بعائلةِ الرجالِ لم أشعرْ بالوحدةِ، بل ازدَدْتُ تميزًا فاغتررتُ بنفسي كوني فتاة.. فتاة ستظل نجمةَ أبيها الذي لم يستطعْ إحزانَها يومًا وإن حاولَ فمحاولته فاشلة. فأنا لست غاضبة."

صُعِق البراق لسالم يحمل نسيم..

"جدي المحارب، كنتَ بحضنِكَ الدافئ ملجأي.."

حدقَ الجدُّ بهما بزعر..

''أشقائي، من تخاف ولديها عشرةُ رجالٍ يحيطونها!''.

توقفت الطبول فجأةً فافتلتت اخيرة كانت في قلوب الجميع ضربة حلت علي رؤسهم فشهق الحشد في نفس واحد برؤيتما فتركوا الذبيحةَ تخرُّ بدمائِها.. وساد صمت الجميعُ بما حل وتناثرت أوراقُ الزينةِ بيد العامل الذي همس بارتياع «يا اللهي! تسقط من اعلي كما لو كانت تهطلُ دموعًا..

''فراس أخي، البطل الجندي الشجاع، ستحرر أنتَ وروفان أرضَنا''.

أطلقَ ضحكةً ردَّدَها صمتُ المكانِ وهب مسرعًا للأسفلِ راكضًا وهو يهتف متحمسًا:

- نسيـــــــــــم.

كلُّ كلمةٍ قرأها صورت وجهَ كلٍّ منهم وهم يحتفلون بالأسفلِ ما بين الرقصِ والذبحِ والتهليل ولحظة دخولِ سالم عليهم يحملُها.. ومن بينهم برز فراسُ وتجاوزَهم حاملًا رسالتَها و...

كثيرًا لا يدركُه الصغارُ ولكن بأرضٍ أصبحَ من صفاتِها الموتُ احتضرت ملامحُ الصغيرِ وهو يصرخ قاطعًا الصمت:

- أختي نسيـــــــــــــم!

# مرارة وانتقام

انقلبت مدينةُ الخليلِ وامتلأَ كلُّ ركنٍ فيها بالجنودِ الصهاينة وبدوا غاضبين ثائرين وقائدُهم يصرخ في هاتفِه بجنون: أريدُ سالمَ حيًا.

دخلوا البيوتَ وقلبوها رأسًا على عقبٍ بطرق عنيفة وتهامست إحدى النساءِ صاحبة المنزل وهي تضمُّ أبناءها الصغارِ في غضبٍ وقهر: تبًا لكم! رجل ابن رجال سالم قتلَ منهم سبعةً كالجرذان.. الله يحميه.

# الفستان الأبيض لليوم الأبيض

استرقت أم أقسم النظرَ عبر أخشابِ النافذةِ الضيقة في هذه الليلةِ الحزينةِ وأجوائِها المتوترة، بينما جاء الشيخُ (يس) وقال بغايةِ السخط:

– حسبنا الله ونعم الوكيل، اليهود كلهم تركوا إسرائيل وجاءوا يقبضون على سالم، لن يهدأوا هذه المرةِ لقد أحرقَ جنودَهم بأحد الكمائنِ، وواحد منهم ربطَه بالسيارةِ وجرَّه، من لحظةِ ما دفنَ بنت البراق وهو ما تركَ شيئًا إلا وفعلَه بالصهاينة.. أين روفان؟؟

فردت كفَّيْها الصغيرين وأسندت ذقنَها عليهما عند نافذتِها وتطلعَتْ للسماءِ في شرودٍ عندها جاء الشيخ (يس) وتأمل ما أشاب طفولتَها من حزنٍ عارم خيَّمَ مكانَها فبدا مشهدُها برأسِه وكأنه يرى ابنته بروج

والتي جاءت من خلفِه بدموعٍ أرهقت عيونَها السوداء فضمَّها إليه واستدارت روفان وقالَتْ نبأً هامًا استخرجتْه أفكارُها الطفولية العذبة التي صارعَها الآلام بنبرةٍ مفعمة بالأسى:

– سيكون بيتُنا مملًا بدون نسيم.

بكَتْ بروج أكثر بصدرِ والدِها وعادت روفان تتطلع للسماء وقالَتْ:

– أنا لا أحبُّ البكاء.

ولكنها بالحقيقة لم تَكُنْ تحب رؤيتها تبكي فقد استدارت لتخفي دموعَها المنهمرة على وجنتيها.. دموعًا سالت بغصةٍ.. وبالوقت ذاتِه كانت دموعُ فراس أشدَّ حرارةٍ وهو يضم جدَّه وما زالت أوراق أختِه بقبضتِه المرتعشة ، بينما اختلى (البراق) بحجرةِ ابنته الوحيدة,عروس بيتة,قلبه وروحه ... وجلسَ يتأمل كلَّ شيءٍ فيها وتذكر..

تردد صوتُها الطفولي بأذنِه:

– ''أريدُ فستانًا أبيضًا يا أبي''.

– ''أنتِ بالسابعة.. الأبيضُ لليومِ الأبيض''.

– ''أريدُ فستانًا أبيضًا''.

– ''ما زلتي صغيرةً أنتِ بالعاشرة.. دعي الفستانَ الأبيضَ لليومِ الأبيض''.

– ''أبي رجاءً.. أريدُ ذلك الفستان الأبيض''.

– ''ماذا أخبرتُكِ.. كما لا يصحُّ أن ترتديَ فتاةٌ بالثالثةِ عشر فستانًا أبيضًا، العروس هي من ترتدي الأبيضَ، ستكونين عروسًا يومًا ما وسأشتريه لك..''

– ''انظري نسيم لجمالِ هذا الفستانِ أما زلتي تريدين الفستانَ الأبيض؟ حسنًا لا تخجلي.. تعالَيْ هنا''.

–''أبي.. دعْ الفستانَ الأبيض لليومِ الأبيض''.

انهار ارضًا وفقدَ كلَّ قوتِه فبكى كطفلٍ فقد عائلتَه وردَّدَ بقهرٍ:

– آاااه.آه يا نسيم

وراح يضرب عليي صدره بجنون صارخًا

– ابنتي ابنتي ماتت

# أبي

اكتسَتْ قريةُ (بيت أمر) بصمتٍ غريبٍ منذ المساءِ ولكن بالصباح تغيَّرَ الوضعُ بتاتًا فقد راحَ اليهودُ يقتحمون كلَّ بيتٍ ويجرون أطفالَه وصرخَتْ النساءُ وصاح الرجالُ ووقف قائدُهم يصيح:

– أريدُ كلَّ أطفالِ (بيت أمر) راكعون أمامي.

كانت النساء تخبئن أطفالَهن فمنهم من رفعت ملابسَها وحمته تحتَها كي لا يرونَه ومنهم من خبأَتْه بعششِ الطيور والحظائرِ ومن حملته يتسلقُ الشجرَ ومن ردمَتْه بالقش.. ولكن لم يمرْ الكثيرُ أمامَ وحشيتِهم حتى جمعوا العشرات وأكثر وقيدوهم من الخلفِ وحاوطوهم بأسلحتِهم وصاحَ قائدُهم الغاضب في مكبرِ صوتِه للأهالي من حولِه:

– أخبروا بطلَكم إن لم يسلمْ نفسَه لنا سوف تفتحون مقابرَكم لأولادِكم.

بكت النساءُ وصاح الرجالُ ولكن صوتَ مدافعِهم أسكتَهم خوفًا على أبنائهم.

ووقف الصهاينةُ يحومون في غضب..

وفي غضبٍ أكثر خرجت روفان تركضُ من البيتِ بدون أن تلتفتَ لأحدٍ خلفَها.. ركضت بكلِّ قوتِها وهناك زفر قائدُ الجنود وصاح:

– لقد أوشك صبري على النفاذ، أدري أنكَ هنا فكنْ شجاعًا واخرجْ وإلا خرجْتَ بدماءِ أطفالِ قريتِكَ أيها الفدائي.

أسرع فراسُ يركض للخارجِ فأوقفَه والدُه فهتف ثائرا:

– لا توقفني أبي، قد أصبحتُ جنديًا الآن.. وسأنتقمُ لنسيم.

تراخَتْ كفُّ والدِه ولم يدرِ لمَ تركَه والتزمَ مراقبته فحسب ..

وبين الغضبِ والحذرِ الشديدين وفجأةً وبكلِّ شجاعةٍ وعلي نحوٍ أثار غضبَهم.. تقدم سالمُ بخطواتٍ هادئة وانكتم الجميعُ وطل من عينِ قائدِهم المقتُ وأشار لجنودِه بالتوقفِ قائلًا:

– أريدُه حيًا.

ولكنه أطلقَ هو رصاصاتِه نحو ساقَيْ سالم.. فأسقط سالم.

- أبـــي!!

تطلع الجميعُ لروفان التي تجاوزت الجميعَ صارخة وركضت نحوه وأوقفها الجندي وضاقت عينُ القائد وردَّدَ:

- لديك ابنة.

- أبي!

التفتَ لصوتٍ آخر قادم بنفس الثورة يركضُ نحوَهم كذلك.. كان فراس يتبعُها وصاحَ بدورِه:

- أبي.. أبي!

وعقدَ القائدُ جبهتَه هامسا بتساؤل :

- طفلان!

ولكن هتف أحدُ الأطفال المحتجزين كذلك:

- أبي.

وتشجع من حولِه وبدأوا واحدٌ تلو الآخرِ يهتفون:

- أبي.. أبي.. أبي.

ازداد القائدُ احتقانًا وأشارَ للحراس بنفاذ صبر :

- خذوه!

وانهمرت دموعُ روفان أمام سقوطِ والدِها وهم يجرونه كأسدٍ جريح تحاول الفرار إليه من بين قبضة الجندي الذي منعها من الاقتراب وبادلَها نظرتَها بابتسامةٍ ظافرة جعلَتْها تصيح بكل عزمها:

- سنحررهـــــــا.

كان لوقعِ كلمتها صدى..صدي اشعل الموقف .

فالتفتَ إليها القائدُ وألقى نظرةً ثائرةً وتحركَ نحوَها على نحوٍ غاضب فحررها الجندي له فوقفَتْ أمامَه بلا خوفٍ وشدَّتْ قامتَها وتقدمَتْ إليه بثقةٍ تراجع لها لا إراديا.. وعقد جبهتَه أمام نظرتِها.. نظرة هزت عرشَ سلطتِه وأفقدته لذةَ انتصارِه في اللحظةِ التي انتظرَها منذ سنوات فتراجعَ وكأنه خشيَ الهزيمةَ بلحظةِ نصره، وعاد لسيارتِه منسحبًا ولا يدري ربما خشي ذلك الحماس الذي دب بعد كلمتها ف أدار عينيه سريعًا بينهم ثم انسحب يشير لجنوده بالانطلاق ,ومازالت نظرتها بعينِه حتى بعد أن ركبَ سيارتَه عاد يتطلع لها عبر مرآتِها في خفوت.

بينما أسرع الأهالي يحررون أبناءهم وجاءَ فراس وتقدم راكضًا بغضبٍ يتطلع للسيارةِ وهي تختفي أمامهم في حسرةٍ.. بكت من خلفِه وانحنت مكانَها تبكي وتنتحب واستدار إليها وأسرعَ يطوقُها بذراعيه الصغيرتين ليختلطَ صوتُ بكائهما ووقف الجميعُ يلقي نظرةَ حسرةٍ وأسف ضامين آباءهم ومغادرين وكأنهم يخافون لعنةَ الوداعِ التي أصابت الطفلين السعيدين..

وعند شجرةٍ ضخمة في الساحة الواسعة بالبلدةِ اجتمعا.

– لا بأس روفان، سيعود والدُك.

همس بكلماتِه الطفولية الرقيقة ووجهِه المرهق فتطلعت له بوجهٍ لا يفرق عنه واباحت:

– غادر أبي ولن يعودَ يا فراس.

قال وهو يحاولُ التخفيفَ عنها:

– والدُك بطلٌ، مؤكد سيقتلهم جميعًا ويعود!

صمتَتْ بعيونٍ كساها الحزنُ ثم قالَتْ:

– هو لم يقُلْ لي ذلك.

هتف وهو يتحرك من مكانِه:

– ولكني أقولُ لكِ ألا تصدقيني؟

وعاد يجلسُ مكانَه وتذكر ما غلف نبرتَه بالحزنِ وهو يهمس:

– نسيم قالَتْ أن والدَكِ بطل.. والأبطالُ لا يموتون.

قالَتْ:

– الأبطال هم أولُ من يموتون.

هتف:

– أين سمعتِ ذلك؟

همست باسي:

– أنا لم أسمعْه.. أنا أرى هذا.

اشار الي نفسه وهو يحاول اقناعها:

– ولكني لم أمُتْ روفان عندما صدمتني السيارة, وكذلك أنامُ والعقارب بغرفتي، وسقطْتُ من أعلى الشجرة ولم أمُتْ.. هل أنا لست بطلًا؟

شدَّتْ قامتَها وتطلعت له بيأسٍ أسرف كل رغبتَها بالحديثِ وقالَتْ:

– عُدْ لمنزلِك.

وغادرَتْ.. فراقبَها في حزنٍ وهمس:

– لستُ بطلًا.

# البطل

بعد أيامٍ، خرج فراس وهو يضربُ حصى الأرضِ بقدمِه فجاءت من خلفِه روفان تركض هاتفةً:

– لمَ لمْ تنتظرني؟

اجاب:

– انتظرتُكِ كثيرًا وشعرتُ بوجعٍ بذراعي.

أمسكَتْ حقيبتَه وقالَتْ:

– لأنَّكَ تضع فيها كلَّ ما تجدَه.. أعطِني أحملُها عنك.

ابتعد:

– لا، لن تستطيعي حملَها.. أنا أستطيع.

أخذَتْها رغمًا عنه وهي تهتف:

– حقًا.. سترى.

حملتها ثم اضافت بحذر:

– انظرْ أنا أحملُها.

أشار لها:

– ولكن العقارب ما زالت بها.

فكرَت بقولِه وهي متسمرة مكانها ثم قررت أخيرًا :

– أنا شجاعة ولا أخافُ عقاربَك.

وتقدمته فتابعها في شيءٍ من الضيقِ وبدا وكأنه يخفي أمرًا ولكنه تقدم ليسير بجانبِها وسألَها:

– أما زلتي حزينة لأجلِ والدِك؟

هزت رأسها ثم قالَتْ:

– لا.. أبي أقوى منهم.. وأنا مثل أبي.. لن أبكيَ مجددًا.

مطَّ شفتيه وتمتم:

– أنتِ بطلة.

كادوا أن يصلوا لمنطقتِهم التي يقضون فيها وقتَهم للتصدي للصهاينة.. تلك منطقة تركزِهم كما يدعون وقالَتْ بهمه:

– سنقضي اليوم عليهم وسنختبئُ هنا خلف المتاريس.

قال بشيء من الإحباطِ:

– بلى سنقضي عليهم.

هتفت متسائلةً:

– لمَ أنت اليوم تائه عليك أن تكونَ يقظًا.

ورفعت كفَّها وسألته:

– كم ترى؟

قال:

– سبعة.

ضحكت فضحك وهي تهمس بتعجب:

– فاشل الرياضيات.

حدثَتْ الاشتباكاتُ كالمعتادِ في تلك المنطقةِ وركض فراس كالعادةِ يصوب حجارتَه ويصيبُها بدقة كما يبدع ، وسريعًا يحمل الأحجار ليبدأ حربًا جديدة وبينما هو يفعل انتبهَ فجأةً لسماعِ صوت:

– ''أرجوكم اتركوني''.

اتبع فراس صراخ صبي يستنجد فأسرع تجاهه، فإذا بالجنودِ الصهاينة يقبضون على صبي بنفسِ عمره.

ركض سريعًا يلحق بالصبي وحاول تخليصَه منهم وتعلقَ بذراعِ أحدِهم ليفلته ولكن الجندي الآخر قبض على رقبتِه فاختنق وكاد يلفظُ أنفاسَه بينما كانت روفان تبحث عنه، ورأته والجنود يدفعونهم داخل سيارتِهم في عنفٍ فوقفت للحظةٍ لا تدري ماذا تفعل..

ركضت في سرعة وأثناء ذلك فتحت حقيبة فراس ووقفت أمام طريق السيارة والتي عقد السائق حاجبيه بداخلها وهتف الآخر بجانبِه:

– ادهسْها.

ولكن طلَّ من عينيها صمودٌ زادهم عنادًا فداس على وقودِه في ثقةٍ وهنا تركت الحقيبة من يدِها تسقط في ثقةٍ أكبر وألقت بنفسِها جانبا

لتَكون الحقيبةَ ضحيتهم وفي غضبٍ توقف الجندي وصاح للآخر:

- أمسكْها.

وخرج الاثنان من مقدمة السيارة ، وهنا كانت الأرض تحتهما قد فرشتها العقاربُ والتي خرجت في جنونٍ من زجاجِها الذي حطمته السيارةُ بالحقيبةِ وانطلقت الحشرات تتسلل إلى جسدِهم في جنونٍ وصرخ أحدُهما بالعبرية:

- لقد لسعني شيء.

وأدرك الآخرُ وحاول الإفلاتَ وارتبكوا بينما خرجَ الثالث من الخلف وجاء متسائلًا وهنا صرخَتْ روفان:

- انطلقْ يا فراس.

وقفز الصبيان خارجًا وركضا بأقصى سرعتهما بينما ازدادت عصبيةُ الجنود وهم يتطلعون لداخلِ سيارتهم والتي أسرعت الحشرات تحتلُّ مكانَهم.

وهناك ظلوا ثلاثتهم يركضون بدونِ أن يقدرَ أحدُهم على التطلع خلفَه حتى وصلوا لمكان آمن وأخذوا يلتقطون أنفاسَهم في صعوبةٍ ولم يلبثْ أن تطلع فراسُ لها وقال:

– عليكِ تعويضي عن أصدقائي.

ابتسمت له وقالَتْ:

– لقد ذهبوا للمعتقلِ عنك.

قاطعهما الصبي:

– عمَّ تتحدثون؟

التفتت له روفان وسالتهْ:

من أنت؟

أجابَها:

– أنا هادي ابن حكيم أبو نافع صاحب المطبعة القديمة.

أشارت له بالهروبِ وقالَتْ بلامبالاه:

– حسنًا اعتنِ بنفسِكَ.

سألَها:

– وأنتِ؟

تدخلَ فراس:

– لا تسأل فقط غادرْ لوالدِكَ قبل أن يعودَ الجنود.

تجاهل فراس وقال لها :

– شكرًا لكِ لأنكِ أنقذتني.

رمقَه فراس بنظرةٍ محنقة وقال:

– أنا من ألقيتُ بنفسي بين أيدي الجنود لإنقاذِك!

قال له:

– لولاها كنا اثنينا بالمعتقلِ الآن.

وأردفَ وهو يتطلع لها:

– إنها جاءت كالملاكِ المحارب وأنقذَتْنا وعاقبتهم.

هز فراسُ رأسَه غير مصدقا وهو يقول :

– يبدو أنكَ تشاهد أفلام كرتون كثيرًا، لنذهبْ يا روفان.

تقدمتهم:

– لنعدْ لمنازلِنا.

لحق بها فراس:

– سأذهب معكِ لمنزل عمي (يس).. كي نمرَ على رجي بطريقِنا.

قالَتْ متذكره:

– أجل هناك باقٍ من طعامي لنعطيه لساسي لتتقوى.. كما اتفقْنا.

أسرع هادي يسألُها:

– من ساسي؟

أجابَه فراس:

لا شأنَ لك.

ثم تطلعَ لروفان مردفًا:

– هل تناولتي ما يشبعُكِ؟

قالَتْ متأففه:

– تعلم لا أحبُّ البطاطسَ فراس.

عانق كتفيها:

– إذَنْ لم تأكلي منه شيئًا، حسنًا لدي شطائر ستعجبُكِ.. ما رأيُكِ لو أقمْنا غداءً سويًا وأكلنا، وما سيتبقى لنعطِه لساسي.

قالَتْ مرحبةً بحماسٍ:

– لنفرشْ حقائبَنا وطعامَنا وكأننا برحلةٍ بالقدس.

أضاف:

– تحت شجرةِ الحج (صراف).

هتف الصبي هادي حاشراً نفسه:

– وأنا معكم.

أبعدَه فراسُ بكفِّه وقال بضيق طل من ملامح وجهه :

– عُدْ لمنزلِك.

# هادي غير الهادي

وفي صباحِ اليوم التالي.. توقفَ فراس عند منزلِ الشيخ (يس) ووضع كفيه حول خصرِهِ وعقد جبهتَه وهو يتطلع لذلك الصبي (هادي) يجلسُ أمام البابِ منتظرًا وهو يحمل كيسًا به طعام فوقفَ أمامَه وسألَه:

– ماذا تفعل هنا، وما الذي تحمل بيدِك؟

أجابَه هادي:

– لقد حكيْتُ لأمي عما فعلَتْه روفان ولقد صنعت لها وجبةً إضافية.

تمتم فراس بنفاذ صبر:

– تبدو عائلةً مُتعبة.

وضاقت عيناه وأضاف بضيق:

– روفان لن تحبَّ طعامَك فنحن نحب عمل غداءٍ سويًا وكأننا برحلة، كذلك اذهبْ لا تنتظرْ أنا وروفان لا نذهب للمدرسةِ إننا نخرجُ كل يومٍ وندورُ بالبلدةِ ونعود لمنازلِنا.

وهنا التفت الاثنان لصوتِ الشيخ (يس) وهو يتنحنح ومن خلفِه رمقت روفان فراس نظرةً متوعدةً وأشار لهم الشيخ (يس) قائلًا:

– هيا لتلحقوا بمدرستكم سأوصلكم.

رافقَهم إلى بابِ المدرسة فدخلوها رغماً وهناك انضموا للطابورِ كما لم يعتادوا ,وراقبَهم زملاؤهم في تساؤلٍ وهمسات ولكن روفان قالَتْ بصوتٍ مسموع نقطع نظراتهم:

– لن أكررَها.

وفي الفصلِ أوقفَها المعلمُ وقال متهكمًا:

– لقد أتَتْ روفان.. هل حررتِ فلسطين؟

قالَتْ ببساطة بين نظرات الجميع الذي ترقبوا وجودها:

– لهذا لا آتي معلمي لأنني لم أحررْها بعد، وأقسمُ لكَ أني سوف أحررُ فلسطين وعندها سأداوم وهذا وعدٌ مني.

وحملَتْ حقيبتَها ووقفت أمامه واضافَتْ:

– وحتى هذا اليوم دَعْني أغادر.

ولوَّحت له بتعظيمِ سلام فهتف بها:

– سترسبين.

هزَّتْ كتفيها وقالَتْ:

– بالطبع أنا راسبةٌ في وطنٍ محتل.

بينما أسند فراس رأسَه إلى راحتيه في ملل ولم يلبثْ أن اتسعت ابتسامتُه بغتةً عندما سمع صوتَ روفان بالأسفلِ تهتف:

– فراس.. فراس!!

وهنا هب واقفًا بحماس فأشارَ له المعلم ببساطةٍ وقال:

– ما من فائدةٍ لفصلِكما هيا لديكَ استدعاء.. تفضل نصفُكَ الآخر ينادي.. أسرعْ.

وهناك بالأسفلِ أسرع يلحق بها ولكن حماسَه تراجعَ شيئًا فشيئًا وهو يتطلع لهادي وهو يسير معها للخارجِ بينما التفتت هي إليه وأشارت له بالتقدم ولكنه توقف:

– أنا باقٍ.

هتف بجملته المنكسرة واستدار عائدًا بينما توقفَتْ تراقبُه في تساؤل.

# دموع

**"الدنيا محل صراعات..حاول الا تكون وحيداً في مواجهتها ..حاول ان تجد نصفك الاخر ..قاتل لاجله لتحيا به "**

- إلى أين يا روفان؟

سألَها الشيخ (يس) وهي تهم بالخروج ففكرت وقبل أن تهم باختراع حيلة سمعت صوتَ (هادي) يناديها فقالَتْ سريعًا تقتنص حيلتها:

- سنلعب أنا وفراس وهادي عند بيت هادي.

اومأ لها موافقًا :

- حسنًا لا تذهبين لبعيد.

أومأت برأسِها كما فعل وانسحبت بوداعه وأثناء خروجِها تغيرت ملامحها الوديعه لتكشر عن انيابها تمتم في ضجر:

– ماذا تريد يا هادي؟

فتحت البابَ الخشبي فأسرعَ هادي يقول:

– جئتُ لنلعبَ بحديقتِكم.

أشارت له خلسةً وقالَتْ سريعًا:

– لا لا عمي (يس) لا يحب العبثَ بحديقتِه.

حاول الدخولَ وهو يقول:

– لا لن نعبثَ بشيء.

وانتبهت لقدومِ العم (يس) فقبضَتْ على ياقتِه فجأة علي نحو صارم وقالَتْ هامسة بتهديد قولا واحداً:

– سنلعب عند منزلكم.

وركضت أمامَه فتسمر لثوان بذهول ومازالت علامات الخوف تعتلي وجهه لتصرفها ولكنه استدرك ولحق بها وفي الطريقِ هتف:

– هذه ليست طريقَ منزلنا.

لم تبالِ به.. حتى توقفت عند فراس الذي كان ينتظرُها عند المتاريس.

فقال متلهفًا:

– لقد تأخرتِ ومرت سيارتُهم من دقائق سننتظرُ عودتَها و...

توقف عند رؤيةِ هادي وهتف به:

– هل تتبعُها إلى هنا خلسةً؟!

قال مدافعاً:

– روفان هي...

لم ينتظرْه يكمل وهو يشير له بالتوقف وتطلع إلى روفان بنظرةٍ مندهشة محنقة تساءلت بشأنِها وسألَها:

– هل أصبح جنديًا معنا؟

سألته:

– هل تريدُه أنتَ معنا؟

توقف الاثنان وكلٌ منهما ينتظرُ قولَ الآخر.

– أنا سأكون معكما.

هتف الصبي هادي بقولِه فبدَتْ ملامح وجهيهما تعبر عن ضيقٍ طفولي لم يستطيعا إخفاءَه وسار فراسُ على نحوٍ شاردٍ وتابعَتْه هي في سخطٍ ولكنها لم تنطقْ.

عاد فراسُ إلى المنزلِ بينما كان الجدُّ جالسًا في الاستراحةِ وسط أشجارِ ونباتات حديقةِ القصر الكبيرة سارحًا بأفكارِه وتنهَّدَ من أرجائه مردِدًا:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

ورأى فراس يسير مطأطئ الرأسِ محبطًا فنادى عليه:

– جدو تعالَ إلى هنا.

التفتَ إليه فراس وغيَّر طريقَه واتجه إليه وجلسَ بجوارِه في صمتٍ وما زالت ملامحُه تحمل الكثيرَ، فمسحَ الجدُّ على رأسِه وسألَه:

– ما بِكَ يا قلب جدو؟ لمَ أنت حزين؟

خبأ فراس وجهَه بصدرِ جده :

– أنا حزين جدو.

ضمه بذراعيه وعاد يسأله:

– وما الذي يحزنك؟

أجاب بصوتٍ مبحوح:

– كثير جدو، أنا فاشلٌ في الرياضيات لهذا لا أعرف عددَهم.. ما يحزنني كثير...

اغرورقت عينُ الجدِ بالدموعِ من قولِه.. فالصغار هم الصوتُ الصادقُ الذي يشبه ضربات القلب فبات وصفُه لأحزانِه أكثرُ صدقًا وتعبيرًا لمدى انكسارِه.. وضمه أكثر بينما بات النهارُ مظلمًا في وقت اشتدَّتْ فيه الشمس حين اختبأت روفان خلفَ منزلٍ تربَّتْ فيه وهي تفكر بمنزلِها.. هناك بحلمها نسيم وأبيها وفراس.. منزلها بالأحلام.. فمثلما أحرقوا الصهاينة منزلَها ولم ترَه عادوا وأحرقوا منزلَها قبل أن تراه.. احتلوا أحلامَها فأحسَّتْ بالظلم، وكيف لشعورٍ كهذا أن يساورَ قلبَ طفلة إلا بفلسطين..

– روفان.

تفتحت في نفسِها السعادةُ وتهللت أساريرُها وهي ترفع رأسَها لعودةِ النهار.. وتجوَّلَ في عينيها بريقٌ أزالَ مرارتَها بلحظة.. واكتست ملامحُها بفرحةٍ هزمت محاولَته للبقاءِ كشاب حكيم، فدمعت كذلك عيناه، إنه فراس.. شدت قامتها وأسرعت إليه وضربتْه على صدرِه لومًا فزادت مشاعرُه طربًا وفرحًا وأمسك كفَّها وركضَ بها فطاوعته في استسلامٍ إلى حيث يكون معه ملجأها..

# خلف الجدار

جلسا أمام الجدارِ الضخمِ غيرَ مباليان إلا بأحلامِهما وهو يشير إليها قائلًا:

– سنعبرُ هذا الجدار، سنمحيه تمامًا، وسأمسِكُ بيدِكِ وسنعبر.

سألت شاردةً:

– كم سيكون عمرنا؟

أجابَ:

– لا أدري ولكني أريدُ أن أعبرَه وأنا شابٌ كما أنا الآن..

تطلعَتْ إليه وقالَتْ باستنكار:

– ولكنَّكَ لستَ بطولِ (أقسم) ابن عمي (يس).

قال ببساطةٍ:

– لأنه وُلِدَ قبلي.

قالَتْ مؤكدة:

– إذن أنتَ صغيرٌ وهو شاب.

شرح لها:

– نحن شابان هو أصبح أطولَ لأنه يسافر دومًا ويركب الطائرة.

فكرت:

– هل إِذَنْ علينا ركوبُ الطائرةِ لنصبح شابين؟!

قال بأسفٍ:

– أجل.

شردت بحيرة ثم اضافت:

– ولكن عمي (يس) قال إن علينا أن نكبرَ لنركبَ الطائرةَ ببلادٍ أخرى فليس هناك طائرات ببلادنا.

قالَ بحيرةٍ:

– كيف ننتظرُ لنكبرَ حتى نكبر!

هزت رأسَها وقالَتْ للتخلص من توهتيهما:

– لا بأس فراس لننتظرْ لنكبرَ شيئًا فشيئًا.. مثل جمال ورجي وإخوتك لندمرَ هذا الجدار.

قالَ باستسلامٍ:

– حسنًا.. ربما بعد عشرِ سنوات.. لا بعد خمس.. لا لا بعد اثنثين.

وهتفَ بحماسٍ:

ا – لآن.

هتفَتْ بارتباكٍ:

– ماذا تفعل؟!

أشارَ لها وهو يتقدم:

– لندمرْ الجدار.

لوَّحت له بقلقٍ:

– عُدْ إلى هنا فراس سيمسكون بنا.

مطَّ شفتيْه بلا مبالاةٍ وهتف لها:

– حينها سنكونُ عبرنا الجدار.. أنا أيضًا أريدُ رؤيةَ النصفِ الآخر من بلادِنا، وسنحرر والدَكِ.

همَّت لتغادرَ وهي تقول:

– هيا سنقع بالمتاعبِ.

أوقفَها قائلًا في حماسٍ أكثر:

– انتظري لنرى، يقولون إن الصهاينة أقاموا منتزهًا شاسعًا كالتي نراها بالتلفزيون.

قالَتْ متهكمةً:

– وأنت تخطط أنه عندما يقبضون علينا سينزهوننا بهذا المنتزه؟

ثم أضافت بأسفٍ وحسرةٍ:

– لولا وجودهم لكان هذا لنا.

تطلَّع لها في صمتٍ ثم خطف كفَّها وقال:

– حسنًا تعالَيْ.

توقفا عند الجدار وأخذ حجرًا جيريًا وراح يرسم.

سألته:

– ما هذا؟

أجابَها وهو يخطط:

– هذا رسمٌ للمنتزهِ الذي ستبنيه بلدُنا، وهذا الباب وهنا بيت الألعابِ البهلوانية، وهنا مسرحٌ كذلك للعرائس، وهنا شلالُ ماءٍ لِلَّعِب، وكذلك حديقةٌ للحيوانات.. وملعبٌ هناك وها أنتِ وأنا بجانبكِ.. ترى من سيسبقُ ليركبَ العجلةَ الدوارة؟

هتفت:

– أنا.

هتفَ:

– لا بل أنا.

ركضَتْ وهي تهتف:

– سأسبقُك.

# وليد

تقدمَها بالركضِ وتوقف وهو يتابعُها لتلحقَه وقال وهو يلتقطُ أنفاسَه:

– فزت.

قالَتْ وهي تقتربُ منه:

– لقد تعبت.

هتف بحماس:

– عندما يولَد جروُنا سنتسابقُ نحن الثلاثة.

قالَتْ وهي تلتقط انفاسها بدوره :

– هذا ليس عدلًا الجرو صغيرٌ ولا يستطيع الجري.

اعترضَ:

– كيف ذلك بل سيسبقُنا.

قالَتْ بثقة:

– علينا أن ننتظرَه خمس سنواتٍ ليتعلمَ المشي.

قال منزعجًا:

– لا روفان أنا لن أنتظر سأعلمُه عندما يولد، وسأدربُه ليكونَ مثلَ الأسد.

قالَتْ وهي تتصنعُ الشراسةَ:

– سيأكلُ الصهاينة.

كذلك مثَّل أنه أسدٌ وراح يزأر وهو يقول:

– سنأكلُهم مثلُه (هَمْ) (هَمْ).

حدَّقَتْ وكأنّها تذكرَتْ أمرًا هامًا وهتفَتْ به:

– نحن لم نسَمِّه به!

هتف:

– أنا من سيسميه.

عقدَتْ جبهتَها وقالَتْ:

– ولكني أنا من تذكرتُ هذا.

احاط خصره بكفيه:

– وأنا من تسلقتُ السور.

عقدت ذراعيها أمام صدرِها :

– كانت الكرةُ معلقةً بالشجرةِ فراس.

ذم شفتيه بغيظٍ:

– ولكني أعَدْتُها.

هتفَتْ بعصبيه :

– فراس لا تضايقني.. أنا من سيسميه.

هتفَ بدوره:

– وأنا لن أناديَه بما ستسميه.

صاحت بعنادٍ:

- بل سأناديه وأنتَ كذلك.

راح يقفز ويتحرك وهو يسدُّ أذنيَهْ ويصدر ضجيجًا بفمِه كي لا يسمعَ قولَها بينما فعلت مثلَه وأخذت تصدر بفمِها ضجيجًا وهي تقول:

- وأنا لن أسمعَ كذلك الاسم الذي تقترحه.

بينما جاءَ رجي من بعيدٍ يركض هاتفًا:

- ساسي تلد.. ساسي تلد.. ساسي تلد.

ولكنهما ازدادا عنادًا فأخفى ضجيجُهما صوتَ رجي والذي وصل عندهما وصرخَ بثورةٍ عارمة:

- ســـــــــــــــــاسي تلد.

توقفا بغتةً وحدَّقا به وابتسما لبعضِهما ومن ثم ركضا إلى بيتِه كالبرق..

وصلوا إلى هناك، وقد كان أخو رجي الأكبر وأخته يقفان على رأسِ الأمِّ المتوجعة وهي تطلق أنينًا أوقفَ فراس وروفان عن التحركِ وأخفى معالمَ البهجةِ على وجهيهما.. كان مشهدُها وهي تلد مؤثرًا للغاية فبدت ملامحُ الجميعِ وكأنهم يمرون بألمِها والتصقَتْ روفان بفراسٍ وأمسكَتْ

بيدِه فضمَّها بقوةٍ وبات يقبضُ أكثر عند كلِّ دفعةٍ تدفعُها الأمُّ المتوجعةُ على الأرضِ.. مرَّ وقتٌ بات كالدهرِ من الألمِ وهم يراقبونها وأخو رجي يحاول مساعدتَها وعلامات الحزن تبدو على وجهِه لتلك العسرةِ التي تمر بها..

وانفرجَتْ أساريرُ فراس عندما خرجَ المولودُ وهتف بطفولية:

- لقد خرج.

وتبادلوا نظراتِ الفرح بينهم ولكن لم يلبثْ أن قال أخو رجي بضيقٍ:

- الجرو ميت.

صمتَ الجميعُ.. ومن ثم دفعت مجددًا بجروٍ آخر بان أنه كأخيه الأول.. بلا حراكٍ أو نفس.. وأحنى فراسُ رأسَه بحزنٍ وراقبتْه روفان بتأثرٍ.. وسمعوا نباحًا صغيرًا.

تطلعوا جميعًا إلى الوليدِ الثالث الذي خرجَ ينبحُ نباحًا خافتًا وصرخَت روفان وفراس وأسرع (رجي) وأخوه يساعدانه.. وقامت الأم برغم الألمِ تبحث عن صغارِها.. تشم صغارَها وتلعق بلسانها على فروتِهم الصغيرة.. كطبيعةِ الحيوانات وغريزتِها بالاطمئنانِ على صغارِها.. لم تفرقْ بينهم.. حي أو ميت.

وراقبَ فراسُ في صمتٍ و(رجي) يسحب الصغيرين الميتين ويبقي الجروَ الحيَّ بجانبِها ونبحت بتأوهٍ وهي تراقبُهما بيدِ رجي ولم تلبثْ أن التفتَتْ لصغيرِها الباقي عند نباحِه.. والتهَتْ به.. كانت تشمه وتلعقُه وتلصقُ رأسَها برأسِه.. وتغيب لتلقي نظرةً على خيالِ الآخرين برائحتِهما بكفي رجي وكأنها تتساءل عن مصيرِهما. بينما لم يجدْ هذا الأخير جوابًا لنظراتِها وكذلك لفراس فقال:

– لم يبقَ سوى واحد.

لم يجدْ جوابًا منهما فأردف:

– حسنا فراس.. انتظرْ حتى..

قاطعَه فراس:

– لا أريدُه.

وترك المكانَ ولحقَتْه روفان وأمسكت بيدِه وسارا معًا وفي طريقِهما تطلعت له بهدوءٍ وقالَتْ:

– لا يمكننا أخذُه من أمِّه.

وأردف فراسُ بحزن:

– لم يبقَ لها سواه.

وافقته:

– بلى فراس.. هي تألمت.. لن نأخذَ الوحيدَ الباقي لديها.

قالَ بأسف:

– لا نريدُه الآن ولا فيما بعد.. لأنها لن تنساه إن أخذْناه منها.. هي تألمِتْ بشدة.. حرام.

قالَتْ مواسيةً إياه:

– لننتظرْ أن تلدَ المرةَ القادمة..

قال بحسرة:

– وماذا لو ماتوا كذلك وبقي واحدٌ؟

مطَّتْ شفتيْها ثم اجابت:

– لا أدري ولكنَّنا سنضربُ رجي.

ابتسمَ لقولِها ولم يلبثْ أن قالَ وهو يجلس على جانبِ الطريق:

– لم أعُدْ أريدُ جروًا.. فلا يمكنُنا أخذُه من أمِّه.. سنؤذيه.. وسيكرهنا.

جلسَتْ بجانبِه وأردفَتْ بحزن:

– كما نكره الصهاينة.

قال:

– لن نكونَ مثلَ الصهاينة ونحرمُ الصغيرَ من أمِّه.

اغرورقَتْ عيناها بالدموعِ وقالَتْ وهي تبتسمُ له:

– فهو ليس معه رفيق.

بادلَها نظرةً ساكنةً طويلةً ثم هتفَ يداوي حسرتهما :

– لنلعبْ معه بدون أخذِه من أمِّه فهي تحبُّه.

قالَتْ بتأثر:

– هل رأيتَ ماذا كانت تفعل؟ هل فعلَتْ أمي كذلك معي؟

تأثر بدوره فبتسم قائلًا:

– مؤكد أمي ضمَّتني.

اكتست نبرتها بالحزن وهي تهمس:

– أنا لا أذكر.

أحاطَ ذراعيه حولَها لتختبئ بينهما هامسًا بحنان:

– مثل ذلك روفان.

اسندت رأسها علي صدره الصغير الدافئ وقالَتْ:

– أنا لم أنطقْ كلمة أمي من قبل.. هل أناديكَ أمي؟

ضحكَ فضحكَتْ ومن ثمَّ ارتسمت الابتسامةُ على وجهيهِما أخيرًا..

ابتسامةٌ ساكنة..,,دافئة ..مطمئنة

# ألم

علقوه من ذراعَيْه وقيدوا قدمَيْه بسلسلةٍ من حديدٍ فبدا مشهدًا ساخرًا بينما يقفون هم خمسة بأسلحتِهم وهو مقيدٌ وأخذوا يضربونَه بالتناوب ولكنه تلقى ضرباتَهم بثباتٍ ونظرتُه لهم استفزَّتْهم أكثر، والقائد يرمقُه بنظرةٍ مقيتة ثائرة وهو يصيح:

– لقد وقعت بأيدينا فتخلَّ عن نظرتِك هذه.

ولكن سالم أضافَ إلى نظرتِه برغم الآلام ابتسامةً ساخرةً متهكمة أثارت غضبَ القائدِ فأزاح الجندي وانقضَّ بسكينِه وطعنَه أعلى ذراعِه وهمس له:

– لولا أننا نريدُكَ قليلًا لكانت هذه بمكانٍ آخر.

قال له والألم يعتصرُه:

– وبما أننا لا نريدُكَ أبدًا فحرّرْني لأضعَها لكَ في المكانِ المناسب.

قبض على وجهِه وقال:

– خروجُك من هنا.. حلم كتحريرِ بلادكم.

تهكم برغم الالم :

– هل تراهن؟

ضحكَ القائدُ وقال بغضب:

– بشرفي.

مال اليه سالم وقال له بمقت:

– فلنتراهن على شيءٍ حقيقي.

زمجرَ القائدُ ثم قال:

– حسنًا شرف خطيبتِكَ الجميلة.. ألم يكُنْ اسمُها نسيم؟

استطاع أن يثيرَ غضبَه، فهاج بغضبٍ محاولًا الإفلات والانقضاض عليه فأردف القائد باستفزازٍ مستمتعًا:

– لا داعي فلم يعُدْ لها شرف، لأنها أصبحت من الأموات.

وأضافَ بضحكةٍ مستفزة:

– عاهرة.

رمقَه سالم بنظرةٍ مزدرية وهو يقول:

– لا داعٍ لأن تقحمَ والدتَكَ في الأمر.

لم يتطلع له وأردفَ صائحًا:

– أكملوا.

جرَّه الجندي من ذراعِه المجروح والذي ملأ الأرضَ بدمائِه بينما قاوم فبدا لهم أقوى وأشد وقد زادَه الغضبُ صلابةً بينهم فزادوا عددا للسيطرةِ عليه وأوقفوه على لوحٍ خشبي أسْود من أثرِ الدماء وربطوا ذراعيه وسحبَ أحدُهم جهازًا.. وصعقوه.. وانتفضَ جسدُه، مرةً.. وثانيةً.. وثالثة.

# تلك النظرة

هتفَ هادي وهو يقفز كالبهلوان أمام فراسٍ وروفان في تلك المنطقةِ لحربهم:

– أريدُ أن أسافرَ لأمريكا وأتحدثُ الإنجليزية وألعب في الملاهي الضخمة هناك.

اعتلَتْ نفسُ النظرةِ المستخفةِ على وجهِ روفان وفراس وهتف فراس بضيق:

– أجل اذهبْ.

قالَتْ روفان:

– ولكن الجنود لا يتركون وطنَهم.

تطلعَ لها فراسُ وقال:

– ولكنه لا يريد أن يكونَ جنديًّا.. يريد السفر.

تطلع روفان لهادي وسألَتْه:

– هل تريدُ السفرَ أم أن تكونَ جنديا؟

أجابَ:

– أريدُ أن أكونَ جنديًا وألعبَ بالملاهي.

هتف فراس متلهفًا:

– انظري، يريدُ الملاهي.

قالَتْ هامسةً له:

– وقال جنديا.

زفرَ وعقدَتْ هي ذراعيها وتمتمت:

– أين الصهاينة تأخروا اليوم!

بدا الصهاينةُ أكثرَ نشوةً وسعادة بعد قبضِهم على سالم يزن فأخذوا يعذبونه مستمتعين.. ومن بعيدٍ راح قائدُهم يراقب بابتسامةٍ تتسعُ شيئًا فشيئًا كلما أشتد الألم على سالم بينما ذلك الأخير لم يستطعْ أن يبادلَه

نظرةً تدل عما يجري به ولكنه رمقَه بنظرةٍ جعلت ابتسامتَه تختفي بغتةً.. تلك النظرة.

أعادَتْه لنظرتِها..

وأسرعَ يترك المكانَ وكأنه تأكَّدَ مما كان يشك فيه وفي خطواتٍ سريعة اقتحمَ إحدى حجراتِ المبنى القديمِ وهتف للضابطِ بداخلِه قائلًا بلا مقدمات:

– حين أحرقْتَ بيتَ سالم، كان لديه ولد أم فتاة؟

قال الضابط:

– سيدي لقد أُحرق المنزلُ بزوجتِه والرضيع فمـ..

أوقفَه بنبرةٍ صارمة:

– ابحثْ فحسب.

وتركَ المكانَ وقد اعتلت وجهَه نظرةٌ.. نظرةٌ قديمةٌ مليئة بالغضب.

أشعرُ بالملل.

هتفت روفان وهي تقف أعلى المتاريسِ فأضاف فراس:

– الجنود تكاسلوا كثيرًا منذ أن قبضوا على عم سالم.

تطلعت له في صمت ثم سألته:

– لمَ لا تقول والدكِ؟

أشار لها بالصمت سريعًا وقال:

– لا تذكري ذلك عند وجود «هادي» هو صغير يمكن أن يخطئَ ويعرضكِ للخطر.

قالَتْ يائسة:

– لقد أخذَ الصهاينةُ أبي يا فراس لن يبحثوا خلفَه.

قالَ قلقًا:

– لا أظن.

سألَتْه:

– ما بكَ؟ لمَ أنتَ قلق؟

قال بقلقٍ احتل نبرته:

– أحلمُ بكوابيسٍ روفان، أرى نسيم تبكي، تبكي كثيرًا وعم سالم معلقٌ بالسماءِ وتسقط منه دماءٌ على رأسِكِ.

جلست على المتاريسِ باهتمامٍ خالطَه خوفٌ وسألته:

– وأنتَ.. كنتَ معي؟

مالَ برأسِه على نحوٍ حائرٍ منكسرٍ نكزَ قلبَها ولكنه لم يلبثْ أن اقتربَ واعتلى بجانبِها وضم كفها ليهمس واثقًا:

– نحن معًا.

قالَتْ بعيونٍ مدمعة:

– أبي يتألم؟

عانقَ كتفَها وقال:

– أبونا بطل.

فكرت قليلا ثم تطلعت له قائلة بإصرار:

– نريدُ أن ننتقمَ فراس.

وافقها بثقة:

– بلى سنخططُ لهذا.

شردت بالدمار حولهما ثم قالَت بخفوتْ:

– سننتظر.

ثم تبادلا نظرةً كافيةً لكثيرٍ من المعاني المتفقان عليها.

ازدادَ الألمُ كلما ازداد التعذيبُ فتحولَ غضبُ الجنودِ لطاقةٍ أنهكت قوةَ سالم..

- أبي.

خُيِّل إليه أنه سمع صوتَها المفعم بالرقةِ والحنان فهمس غير واعيًا:

روفان أنتِ هنا؟

- سالم.

سمعَ صوتًا آخر حرك كلَّ كيانِه الممزق وأجاب قلبُه:

- نسيم أنتِ أيضًا هنا؟

هتفت روفان:

- أبي انظر إليّ.

ابتسمت نسيم برقة علي جانبه وقالَتْ:

- سالم؟

وانتفضَ جسدُه مجددًا في قوةٍ وغابت رؤياه.

# أخاف

التف الصغارُ كعادتِهم حول زفافٍ بالبلدةِ ,كعادة الاطفال باللهو يقفزون هنا وهناك تتملكهم بهجة الافراح , بينما جلسَ روفان وفراس يراقبون من بعيدٍ وتمتم فراس شاردًا:

– نسيم.

التفتت إليه روفان في صمتٍ بعيونْ آسفة فتنهدَ من أرجائِه وعاد يتطلع مجددًا للزفةِ، ولكن هذه المرةِ غطى الحزنُ الأصوات فبدا المكانُ ساكنًا تمامًا وهو يتخيل أختَه وهي تلوح له بابتسامةٍ واسعة وهي بفستانِها الأبيض.

وضمت كفَّه.. تطلع لكفِّها بكفِّه فقالَتْ له:

– لنغادرْ.

سارا معًا وهناك بنصفِ طريقِهما أشارَ نحو القبورِ وقال:

– لنسلمْ.

تركَتْ كفَّه وقالَتْ:

– أنا أخاف.

وتطلعت للمكانِ وأردفت:

– لا يمكنني أنتَ تعلم.

أومأ برأسِه متفهمًا واتجه نحوَ القبورِ بينما وقفت تراقبُه من مكانِها.

# النبأ العجيب

- روفان! روفان!

جاء الشيخُ (يس) من الخارجِ متلهفًا واستقبلته زوجتُه وبروج في تساؤلٍ فسألهما بلهفة:

- أين روفان؟

وقبل أن تنبسَ إحداهن ببنتِ شفة جاءت من خلفِه واجابتهْ:

- نعم عمي (يس).

ابتسم لها وضمَّها فَرِحًا وهو يقولُ:

- سيحررون والدَك.

قالَتْ زوجتُه:

– حقًا؟؟

وتساءلَتْ الابنه ذات الرداء الاسود بروج:

– بهذه السرعة!!

وتطلعت روفان لفراسٍ من خلفها في صمت ثم عادت تتطلعُ للشيخ يس وقالَتْ:

– هذه خدعةٌ عمي (يس)! الصهاينة لن يتركوا أبي بهذه السهولةِ بعدما أمسكوا به، من يصدقُ خدعتَهم!!

ضم كتفَيْها وقال:

– أنتِ لا تدرين.. بل سيحررونه غدًا وسترَيْن.

سأل فراس:

– لماذا؟

لم يدرِ أن سؤالَه السهل لم تَكُنْ له أي إجابةٍ سوى حيرةٍ أصعب ورجاء ساوى الخوف..

وتطلعت روفان إليه كأنه تخبره امرًا جليلاً:

– إنهم قادمون.

أومأَ برأسِه وقد تفهم ما تعنيه تمامًا.

***

## "كلِّ هذا على روحي".

ما زالت جملتُها تترددُ بأذنِه كصدى صوتٍ وهو يتأملُ آثارَ دماءِ الذبيحةِ بالأرض وبقايا أوراق الزينةِ المتبقية بين الحشائش..

ومالَ والتقطَ ورقةً من الزينةِ وتأملَها في حزنٍ بكى له قلبُه..

هنا زحفت على بطنِها وهي رضيعة.. وهنا أرجحَها بكفيه.. وهناك زرعَتْ نبتتَها الأولى بحديقتِها.. إنها تركض.. وتضحك.. وتلقي بنفسِها بين ذراعيْه.. كان ملجأَها.. والدها وأمها.. وتلك قصاصةٌ لزينةِ زفافِها.. إنها ما زالت هنا.. يراها بكلِّ ركن.. إنها لا تفارقه.

# المهمة قبل المائة

وفي هذا الصباحِ قبلَ شروقِ الشمس.

– هيا أسرعْ!

هتفت روفان تحت نافذةِ حجرة فراس بمنزلِه فأسرع هامسًا بضجر وهو يطلُّ من النافذةِ:

– لا تصرخي، قادم.

انتظرتْه في لهفةٍ وبمجردِ أن رأته هتفت بلوم:

– لمَ تأخرت؟

قالَ والنعاسُ بعينيه:

– لقد عملنا كثيرًا أمس روفان ألم تتعبي؟

تأففت:

– فراس اليوم مهمتنا، كن مستيقظًا، فنحن انتظرنا كثيرًا لنعرفَ موعدَ قدومِهم.

حك رأسه وهو يقول بارهاق:

أ – دري, أنا معكِ ولكني متعبٌ قليلًا.

قالَتْ لتعيد له طاقتة:

– الجنود لا يتعبون.

قالَ متعصبًا:

– حسنًا لقد تركني التعب.

لوت شفتيها ثم تجاوزت عنه وقالَتْ:

– علينا التأكدُ من كلِّ شيءٍ قبل أن يأتوا.

ارجف بعينيه المتورمتان من قلة النوم وهو يقول في أسفٍ:

– لهذا كنا نريدُ المنظار.

قبضت بكفيها حول رأسه ليستفيق وقالَتْ:

- سنذهبُ الآن لإحضارِه.

قال بإحباطٍ وهو يبعد كفيها:

- سيهشُّنا العم رشيد كالذباب.

قالَتْ بثقة :

- ولكني جمعتُ المال.

حدق بها مندهشا فسخرت مغمغمة «أخيراً استيقظ»

وسألها بعصبية:

- بمفردك؟

بدت ملامحُ القلق على وجهِه وكأنه يخشى أن تنطقَ باسم هادي وهو يترقبها بكل اهتمام فأجابت:

- بعْتُ باقيَ الزجاجات.

استردَّ أنفاسَه في ارتياحٍ وتذكرَ قولَ جدِّه:

فقط أنَتْ في الصباحِ وسألت عن حالِكَ وأخذَت الزجاجاتِ من البرادِ

وغادرَت، فأدركْتُ أنها راحت تكملُ ما تقومان به.. مؤكد ستأتي بعد أن تنتهيَ من دوامِها كما تسميانه.

ابتسمَ لها ابتسامةً عبرّتْ عن كلِّ ما يدور بداخلِه فقالَتْ:

– هكذا ستكتمل خطتنا وسننجح.

قالَ بارتياح :

– أخيرًا سننفذ خطتَنا الكبرى.

وتوقف وقد تذكرَ أمرًا فأسرع يقولُه:

– ولكن روفان، ماذا لو كانوا حقًا قادمين بوالدِك؟

قالَتْ باسلوب الكبار:

– هم قادمون وهذا كلُّ ما نريدُه، لن يفعلوا.. ولكننا سننفذ خطتَنا اليوم.

قال مُصِرًّا:

– وماذا لو كان والدُكِ معهم؟

هتفت كالجريحة:

– أخبرتُكَ لن يفعلوا، هم مستعدون أن يتركوا أرضَنا ولا يتركوا أبي، لن يحرروه ليقتلَهم فراس، ونحن سننتقم منهم.

هتفَ مصرًا:

– إِذَنْ لمَ حددوا موعدًا لتحريره ما داموا لن يحرروه!

قالَتْ:

– لا أدري، ولكن أبي قال إن اليهودَ خائنون وأنا لا أصدقُهم..

وأضافت متوعدةً:

– أتمنى أن يأتيَ الشيطانُ معهم.

قال مؤكدًا:

– ذلك القائدُ الجبان.

لوحَتْ له في حماسٍ وهتفت:

– سيقعُ بين أيدينا.. ولن نرحمَه.. هل أنتَ مستعد؟

قال بحماسٍ:

– أجل مستعد.

أردفت بجدية:

– علينا باتباعِ خطواتِهم من أعلى.

أنصتَ لها في اهتمامٍ وهي تراجع ما خطَّطاه معًا ومن ثم ركض معها فقال بحماسٍ بطريقهما:

– هذه مهمتُنا المائة أليس كذلك؟

قالت بتوتر:

– قلتُ لا تحسبْ مجددًا.

هتفَ:

– أنا أكتبُ هذا.

قالت واثقة:

– ولكن هذه المهمة قبلَ المائة.

اتسعت ابتسامتة وهتف بسعادةٍ:

– سنحققُ المائة.

# وأخيرا

– جمعتُما المالَ الذي طلبتُه أخيرًا؟

تحرك ذلك الرجلُ العجوزُ أشيبُ الرأسِ واللحيةِ داخل بيتِه المتواضعِ وأضاف:

– لقد ظننتُكما يئِسْتُما ولم تستطيعا جمعَ المال.

قالَتْ روفان وهي تستعيد معاناتِهما في جمعِ المال:

– أجل لقد جمعْنا أخيرًا ذلك المبلغ.

رمقهما بنظرةِ شكٍ وقال:

– سرقتُما من؟

قال فراسُ وقد أغاظَه قولُه:

– إذَنْ أنتَ تعلمُ أن المبلغَ كبيرٌ لهذا تخالنا سرقناه.

وأضافَتْ روفان وهي تشير لفراسٍ بالهدوء:

– على كلٍّ لقد جمعنا المال، فما الذي يهمُّكَ من أين؟ هيا أعْطِنا المنظار.

قال العجوزُ:

أ – جل، أجل إنه منظارٌ مقرب مستورد اشتريتُه من قلبِ الأردن بينما كنتُ أعملُ هناك منذ عشريـــن عامًا.

قال فراس:

– لقد حفظنا القصةَ عم رشيد أعطِه لنا.

سألَهما:

– ماذا ستفعلان به؟

قالَتْ روفان وقد فاضَ بها:

– سنصطادُ حمامًا، أعْطِه لنا عم رشيد وإليكَ المال.

قال بشك:

– أنتما تخفيان أمرًا خطيرًا، وإلا لمَ تجاهدان للحصولِ على منظارٍ مقرب! انظرا لنفسيكما أنتما صغيران على هذه الأعمالِ الخطرة.

قال فراسُ ببراءةٍ مستنكرة:

– أيُّ أعمالٍ خطرة عم رشيد إننا ننوي اللعبَ به.

قالَ الأشيبُ متراجعًا:

– إذن تريدان أخذَ منظاري الثمين للعبِ به، أنا لن أسمحَ بهذا.

هتفَتْ روفان:

– عم رشيد لا تتلاعبْ بنا، لقد اتفقْنا وانتهى الأمر، ثم لا شأنَ لأحدٍ فيما ننوي.

أشارَ لها فراسُ بالهدوءِ وهمس:

– اهدئي.

وتطلع له وأردف:

– عم رشيد لقد انتهى الاتفاق.

سألَهما بدهشةٍ:

– ألن تأخذانه؟

مالَ إليه فراس وأضاف:

– بل أصبحَ لنا.

ضاقت عينُ العجوزِ وهمس لهما:

– أنتما صغيران ولكنكما خطيران وعلى المرءِ الحذرُ منكما.

تطلعا لبعضهِما وهزا كتفيهما بلا مبالاةٍ ومن ثم قام العجوزُ وأحضرَه لهما وهو يقول محذرًا:

– لا تورطا المدينةَ كلَّها بعبثِكما.

قال فراسُ:

– لن نفعل.

وأضافَتْ روفان بابتسامةٍ زجلة وهي تراقبُ المنظار بيدِه: بالتأكيد.

وفي منزلِ الشيخِ (يس).

سألَ هذا الأخيرُ ابنتَه بروج في حيرةٍ:

– أين ذهبت؟!!

أجابَتْ:

– لم تقُلْ، بل ركضت وقالَتْ أنها ستتأكد.

سألَها:

– من ماذا؟

قالَتْ:

– لا أدري فقط هتفَتْ بذلك.

تمتمَ:

– تلك الفتاةُ المجنونة!

وحمل نفسه للخارج في حيرة

# نصاب!

– ها هو المال.

مدَّتْ روفان المالَ للعجوزِ فقال هذا الأخيرُ:

– لا.. لا أريدُه.

هتفت بعصبيةٍ:

– ماذا تعني؟ هل تريد أكثرَ؟ إياك أن تفكر! لقد اتفقْنا.

وتطلعت إلى فراسٍ ولكن فراس زفر وقال:

– لا تهدئي.

هتف بهما العجوزُ:

– كفى كلاكما.. أنا لا أتلاعبُ بكما، بل لا أريدُ المالَ فقط.

رمقاه بنفسِ النظرةِ الصامتةِ المندهشة الغاضبة، فأجابَ عن نظرتِهما مردفًا:

– أجل لا أريدُ منكما المال، في الحقيقةِ أنا لا حاجةَ لي بالمنظار وكنت سأعطيه لكما حتى لو لم تطلبانه من أولِ مرةٍ رأيتماه، ولكني أردْتُ أن تعرفا قيمتَه، كما أردْتُ أن أعرفَ قدرَ حاجتِكما إليه وقيمته بإصراركم.

قال فراس متمتمًا:

– أنت نصاب!

وقبل أن يستديرَ لقولِه قالَتْ روفان:

– لقد تردَّدْنا عليكَ مرارًا، ألم يكن هذا كافيًا! لمَ انتظرتَ لنجمعَ المالَ إن كنْتَ لن تأخذَه!

قال وقد نجحَتْ في لفتِ نظرِه:

في البدايةِ ظننت أن أباكي من أرسلَكِ لهذا، ولكن مع مرورِ الوقت – أدركْتُ أنكما وراء ذلك.

قالَتْ بثقة:

– ولمَ يحتاجُ أبي لمنظارٍ فعيونُه تصطادهم بدقة.

تحسس فراسُ ذراعَه وهو يقولُ مستاءً:

– لقد عانيتُ لجمعِ المال.

حاولت مواساتَه فمالت على أذنِه وهمست:

– أصبح المالُ لنا وسأبتاعُ لأجلِكَ القطار.

برقت عيناه وقال سريعًا:

– ولأجلِ ضفيرتك مشبك أجنحة الفراشة.

بادلَتْه نظرةَ الحماسِ والشغف بسعادةٍ طفولية غامرة شردت في بهجتها فذابت بسحرها وسريعًا تلاشت عند التفاتِها لوجه العجوزِ وكأنها عادت لواقعِها فسيطرت على حماسِها وقالَتْ:

– على كل مازلتَ كما همس فراس.. طيب القلب.

وقبل أن يهمَّ فراسُ بقولِ شيءٍ غمزَتْ له خلسةً فقال مستدركًا:

– أجل كما سمعتَني.

ففكرَ العجوز وكأنه يحاول تذكرَ قولِه ولكنهما خطفا المنظارَ وهتفت

هي:

- شكرًا عم رشيد الطيب.

وأردفَ فراس:

- الحنون الجميل.

وقالَتْ لفراسٍ وهي تغادر بمكر :

ألم أقُلْ لكَ؟

ردَّ عليها وهما يتسللان بهدوءٍ بنفس طريقتها:

ومن مثلُ عمّ رشيد!

# النظرة الأولى

كان مشهدُ قريةِ (بيت أمر) غايةً في الروعةِ من أعلى هذه التلة.. بينما مدَّتْ روفان المنظارَ لفراس فوق هذه التلةِ وأشارت إليه:

– أنت أولًا.

قالَ ببساطة:

– لا بأسَ فإن لكِ النصيبَ الأكبرَ فيه.

قالَتْ بتفهم:

– حسنًا أنا لن أتركَه لك بل سأدعُكَ تحصل على النظرةِ الأولى منه.

فكر بقولها قليلا ثم سألها بدهشة:

– ماذا يعني هذا! هل ستبقينه معكِ دومًا؟

قالَتْ بثقة :

– بلى سيكون معي.

قالَ معترضًا:

– لم نتفقْ على هذا!

قالَتْ بلامبالاة :

– وعلى ماذا اتفقْنا؟

قالَ بضيق هاتفًا:

– لنضعْ إِذَنْ اتفاقًا.

رمت ضفيرتها خلف ظهرها بعصبية وهي تقول :

– قلتَ أني أنا من لي النصيبُ الأكبر.

صرخ بها

– وماذا يعني هذا؟

صرخت بدورها:

– سأضعُ القوانين.

صرخ بجنون:

– أها.. أنتِ تريدين وضعَ قوانينٍ حسبَ نصيبِكِ الأكبر.

قالَتْ بتحدي :

– جيدٌ أنكَ تذكر.

صرخ وهو يغادر:

– بلى سأذكرُه كثيرًا وأنا عائدٌ لبيتي.. وداعًا.

تابعَتْه في صمتٍ وهو يغادر بينما بدا هو ينتظر أن تقولَ شيئًا ولكنها لم تفعلْ لذا ركبَ دراجتَه وانطلقَ سريعًا.

دخل فراسُ المنزلَ غاضبًا يكاد يشتعل من الغضب فسألَه جدُّه:

– ما بكَ فراس؟

توقف عندَه وصرخ منفجرًا:

– عاقلة!! قلْتَ إنها ذهبت كي لا تتعبَني لأني مريض، ولكنها ذهبت لكي يكون من نصيبِها.

وصرخَ بنحرةٍ شديدةٍ بحنجرتِه:

– خدعتنا!!

مدى القهرِ في صراخِه وأسلوبُه الطفولي لمواجهةِ ذلك جعل الجميعَ يخفي ضحكَتَه الحزينة..

بينما همست هي أعلى التلةِ وقالَتْ محدثةً نفسها بإستسلام:

– حسنًا فراس سأنظرُ أنا النظرةَ الأولى.

وانطلقت بسرعةٍ من أعلى التلةِ ومن ثَمَّ إلى الشارع وفي الوقت ذاته مرت سياراتُ الصهاينة.. وصلت لمنزلِه وهتفت: فراس!

ولكنه كان قادمًا يركض من الاتجاهِ الآخر لشارعِهم يبحث عنها وهو يهتف:

– أسرعي روفان لقد أتوا!

ركضت باتجاهِه وهتفت تهديه ابتسامة اعتذار :

– النظرةُ الأولى لي.

هتف:

– اتفقْنا.

اضافتْ وهما يركضان:

– وسنتقاسمُه بعد ذلك.

أردف :

من ينظرُ خلالَه يقول ماذا يرى.

اضافت:

– كلَّ شيء.

ردَّدَ مؤَكِّدًا:

– كلَّ شيء.

# بطل وشيطان

انطلقوا يركضون حتى وصلوا لأعلى التلةِ مجددًا وهناك جلسوا بحذرٍ وتطلع كلٌّ منهما للآخر.. بينما انطلقَ الشيخُ (يس) إلى الساحةِ الواسعةِ حيث وقفت سياراتُ الصهاينة وتجمع أهلُ (بيت أمر) يتابعون المشهدَ في صمتٍ.. وخرجَ القائدُ الصهيوني من قمرةِ سيارتِه وبحثَ بعينيه في الجميعِ تحديدًا الأطفال، بينما كان الشيخُ (يس) بدورِه يبحث عن روفان والتي كانت تتابع من أعلى عبر المنظار..

قالَتْ تصف المشد عبر المنظار :

– نزلَ الشيطانُ من السيارة.

سألها:

– كم حمارًا معه؟

أجابتْ:

– لا أستطيعُ معرفةَ عددِهم من الناسِ حولهم.. أرى عمَّ (يس) وعم عبد الفضيل وزوجته وهي تحملُ مؤنس ابنها، والعمة جيهان وابنها وابنتها والجد شويحي وعائلتَه كلها.

همس بتعجب:

– حقًا أحضر عائلتَه كلَّها؟!

قالَتْ وهي مازالت تضع المنظار:

– بلى كلُّهم يقفون.

مد يده قائلاً:

– دعيني أرى.

قالَتْ وهي تلصقُ المنظارَ بعينيها:

ا – لنظرة الأولى لي وأنا لم أنزلْ المنظارَ عن عيني.

أصمتتْه وأردفت:

– ها.. إنني أرى أربعةَ جنودٍ، يخرجون من السيارةِ الأولى وهناك سيارة أخرى تقف قريبًا وعندها يقف جدُّكَ وهناك أنس وجعفر وإبراهيم إخوتك.. لم يأتوا كلُّهم ولكني أرى العم محمد ربما الذي يتحدث معه هو أخوك (نجيب) وهناك يقف عمران وأخواه الضخمان والعم (تميم) والعم (براق).

همسَ بتوترٍ:

- أبي!

أردفت:

- لحظة هناك جنودٌ أكثر بالسيارةِ الأخرى بالخلف ها هم يترجلون منها ويحملون أحدَهم من ذراعيه.

أنصتَ فراسُ وأردفت هي وكأنها فقدت حواسَّها كلها وهي تصف:

- ملابسُه مهترئة، ساقاه مصابتان فلا يستطعُ الوقوف.. قدماه حافيتان متورمتان، كفاه مدلدلتان لا يستطيع التحكمَ بهما.. أصابعه مكسرة جميعها، قلبُه يخفقُ بشدة.

سادَ صمتٌ خفق خلاله قلبُ فراس بينما تشاركت روفان تلك الخفقاتِ البعيدة وأردفت :

- إنه البطل.

تساءلَ فراسُ ومن ثمَّ أدركَ ما تعنيه بينما أردفت:

- يغطون رأسَه بقماشٍ أسود.

اقتربَ الشيطانِ ورفع القماش عن وجهِه..

اقشعرت الأبدان جميعها من هول مشهده ,وانطلقت همسات مشفقة بينما

نطقت روفان من اعلي بقهرْ: أبي..

# انتقام

كتمَ الجميعُ أنفاسَهم من هولِ مشهدِه وبكت عيونهم بحسره فما كان سالم إلا جسدًا غارقًا بدمائه..خائر القوة ..أسير ابدع الاحتلال بتعذيبه فاشاح الجميع بوجهه يقيدهم الشعور بالعجز, تشيح نفوسهم رافضه رؤيه ضعفه .لا يقدرون علي شئ لرجل كانوا يحتمون فيه يومًا ,فأتخذه الاحتلال عبره لكل مقاوم,لا شك ان روفان صادقة ...لم ياتوا ليحرروه

ومن الأعلى استطردت روفان بغصةٍ:

- أبي يتألم، كل جسدِه يتألم.

انتفضَ جسدُها وشهق الجميعُ مره واحدة وسقطت دموعُ فراس.

- أبي مات.

أنزلَ القائدُ الصهيوني مدفعَه بعد أن أطلقَ رصاصةً في قلبِ سالم وسقط

جسدُ سالمٍ أرضًا وصرخت النساء وهاجَ الرجال وأسرع الجنودُ يحكِمون سيطرتَهم بينما وقف الصهيوني يبحث حوله في جنونٍ ولكنها لم تَكُنْ هناك.. لم تَكُنْ بينهم.. لا يراها.. بل كانت أعلى تضيفُ بصوت متحشرجٍ ودموعٍ أحرقت وجنتيها:

– استُشْهِد..

خطفَ فراسُ المنظارَ وهتف وقلبه ينتفض لاجلها:

– النظرةُ الثانية لي.

وأسرعَ يلقي نظرةً واضاف كشاب كبير:

– لقد ركبوا سيارتهم، انطلقوا بالطريقِ الغربي، هيا بنا!

بكَتْ وبكَتْ وصارت تبكي وهي تركض معه وأسرعَ فراسُ بذاتِ الدموعِ يشير إلى رفاقِهم بالمهمةِ بالاستعداد وأسرعوا يحملون جوالاتٍ مليئة بالأحجار ويصدرونها بالطريق ورفعَ فراسُ رأسَه بعيون ملأتها الدموعُ وتطلع لروفان التي وقفت تبكي مكانَها فأسرعَ نحوها وقبضَ على كفِّها وجرَّها معه وانطلقا لمكمنِهم وانتظرا خلفَ الجدرانِ بالمنازل العالية المهدومة.

لم يغِبْ نظره عنها.. كل دمعةٍ أسقطَتْها لأجلِ والدِها سقطت منه لأجلِها وهو مازال يقبضُ على كفِّها بقوةٍ.. وهمس بقهرٍ:

– سننتقم!!

وأسرع يخرجُ الزجاجات من جوالٍ كبيرٍ وهتفَ:

- هيا!

مسحت دموعَها بكفِّها وأسرعت تحملُ الزجاجات باصرار وفي اللحظةِ التي توقفت فيها سياراتُ الصهاينة أمام الجوالاتِ التي تسد الطريقَ انهالت عليها زجاجاتُ الغاز من كل اتجاهٍ من المباني العالية وتطلع فراس لروفان وعضَّ على أسنانِه لألمها وألقى زجاجته المشتعلة بكل القهر ، واشتعلت النيرانُ بالسيارةِ الأولى وسرعان ما اشتعلَ الجنودُ بداخلِها وراحوا يطلقون النيران في غضبٍ وكانت رصاصتهم سببًا في انفجارِ الثانية وطار منها جسدُ جنودِها عندما انفجرت في قوةٍ فتطايرت اجزائها.. وفرَّ الأطفالُ من المباني بينما وقفت روفان تتطلع للسياراتِ والقائد الصهيوني قد نجحَ من الخروجِ وهو يحاول إطفاءَ النيرانِ بذراعِه والتقت عيناه بها من أعلى.. نسيَ النيرانَ بذراعِه وقد ألهته نظرتُها.. نظرةُ مقتٍ وشجاعة.. فبادلَها إياها في قهرٍ وذعر.. فما من دهشة لتصرفِ صاحبة نظرة كتلك، وانتبه أخيرا إلى كفِّه التي اشتعلت فانحنى بالأرضِ يحاول إطفاءها وهو يتأوه في غضبٍ وجنوده الذين نجوا يحاولون مساعدتَه وصاحَ بغضبٍ عارم:

- أمسكوا لي ابنة ســـالم!

ولكن فراس كان قد قبض على كفِّها وانطلقَ بها لبعيـــــد..

# نجم صغير

هنأ أهلُ (بيت أمر) بعضَهم بما حدث فما همهم كيف.. فقد ثارت الأقوالُ أن رجالَ سالم هم من فعلوا ذلك العملَ الانتقامي.. وآخرين منهم ادعى أنه مجردُ حادثٍ ولكن لم يظن أحدٌ أن العمليةَ الانتقاميةَ كانت بقيادةِ طفلَيْن في العاشرة!! حتى القائد الصهيوني نفسه مازال يشعر بالذعر، فقد رأى نفسَ النظرة.. تلك النظرةِ التي وثقت هذا العمل.. وازدادَ مقتًا وغضبًا فوق ما يحملُه بداخلِه.. كيف يفسر هزيمتَه أمامَ طفلة! من سيصدق؟ وكيف يفسر.. وكيف استطاعت؟ ومن يساندُها؟؟

كل هذا دارَ برأسِه فكان أشدُّ إزعاجًا من ألمِ حرقِ يدِه والممرضة تعالجُها وقد ظنت أن ملامحَه المشتعلة كانت من ألمِ الحرق بكفِّه ولا تدري أنها من ألمِ الهزيمةِ الذي اعتصرَ نفسَه..

وعلى نحوٍ آخر عاد فراسُ وروفان يختبئان تحت منضدةِ التاجرِ (تميم) وقد أغلقَ محلَّه بعد الأحداثِ وهناك تربعَ فراسٌ وأسندَتْ روفان رأسَها على فخديه في الظلامِ فما بقي إلا ضوءُ الشمس الخافت المتسلل من تحتِ البابِ بالخارج.

أسقطَتْ دمعتَها..

ربَّتَ عليها وهمس:

– أحرَقْناهم روفان.

قالَتْ باكية:

– أحرقْتُ يدَ الشيطان التي قتلَ بها والدي.

أردف بنفس الدموع المقهورة:

– ونسيم.

قالَتْ تعزي نفسها وتعزيه:

– أبي ونسيم ذهبا للجنةِ فراس.

همس بقوة:

– هما فخوران بنا.

همستْ حالمة :

– أبي ذهبَ لنسيم وسيبنيان لنا بيتًا هناك لن يكونَ الشياطين هناك معنا فراس.

قالَ بنفس نبرتها الحالمة:

– بلى سيكون بيتًا كبيرًا.

أضافَتْ:

– ومنيرًا.

دسَّ يدَه بجيبِه وأخرجَ نجمةً ورقيةً أضاءت بالظلامِ وقال:

– خذي هذه.

أخذَتْها منه وتأملَتْها فاستطرد:

– كي لا تشعرين بالخوفِ من الظلام.

سألته:

– نزعتَها من غرفتِك؟

أجابَ:

– لقد نزعتُها كلَّها بعد أن ارتدَت نسيم فستانَها، كنت أستعدُّ للانتقالِ لمنزلِنا معهم.

تأملَت نجمتَها وسألته:

– ولكن هذه النجمة صغيرة.. من تكون؟

قالَ بحيرةٍ:

– لا أدري ولكني حملتُ والدتَكِ ووالدتي بصندوقي الصغير كي لا يضيعان.

تساءلت:

– ولكن أين سنضعُهما؟

بحث عن إجابةٍ ولكنه تمتم:

– لا أدري ولكننا سنفكر.

ابتسمت لضوءِ نجمتِها بكفِّها وهمسَتْ ودمعتها تسيلُ متحررةً:

– سأسميها فراسًا.

اعترضَ برغم الدموعِ بعينيه قائلًا:

– ولكنها صغيرة وأنا كبير.

رفعَتْها عاليًا وقالَتْ:

– انظرْ إنَّك تشع يا فراس.

همس بعنادٍ طفولي:

– سأختارُ أصغرَ منها وسأسمّيها روفان.

ضحكَتْ برغمِ الحزنِ والدموعِ والتهَتْ بنجمتِها المضيئة أو نجمِها فراس ولكن شيئًا ما لفت نظرَها بعيدًا فهمست:

– فراس..

نعم؟

– أريدُ مساعدتَك.

# ملامح بطلة

ازدادَ القلقُ بداخلِ بيت البراق بين إخوته ولكن الجد ازدادَ حزنُه أكثر وهو يتذكر مشهدَ سالم وهز رأسَه في أسى شديد.. بينما جلسَ الأبُ بحجرةِ ابنتِه وتطلع لصورتِها وقال باكيًا يتحسس وجهها بانامِلة:

– وردة أبيكي، لقد ذهبَ إليكِ أميرُكِ، لن تشعري بالوحدةِ بعد الآن.

وعلى نحوٍ آخرٍ بكت أم أقسم في قهرٍ شديد ووقفَ الشيخُ (يس) عند الباب يعلن نبأه بحزن:

– لن نأخذَ عزاءَه بالمنزلِ لأجل روفان، مؤكد سيبحثون خلفَه مجددًا بعد حادثِ اليوم.

بينما اجتمعَ أهلُ القريةِ برغمِ قواتِ الصهاينة بعد حادثِهم يقفون على القبورِ لدفنِ سالم البطل الذي قهرَ الصهاينة ونصرَهم فكان بمثابةِ وعيدٍ

للصهاينة من كلِّ فلسطيني مقهور.. سالم أمير نسيم وردة الخليل جميلة الجميلات.. ووالد روفان.

وقفَ الجميعُ ما بين الأسى والحسرةِ يحملونه ليسلمونه للأرضِ ليبدأ رحلةً بيدِ القدرِ في عالمِ الغيبِ ومن بينهم مرت.. توقف الرجالُ قبل أن يضعونَه بلحده وتطلعوا لتلك الطفلة التي ملأَ ملامحَها الفخرُ بعيونٍ قاومت البكاءَ وشعرٍ قصيرٍ إلى أذنيها تحملُ ضفيرتَها بيدِها.. وألقتها على جسدِ أبيها في مشهدْ مهيب.

وبعد أسابيعٍ.

مازال مشهدُها بعد مرورِ أسابيعٍ بعقلِ كلِّ أهلِ (بيت أمر)، تلك الطفلة التي قصت ضفيرتَها الطويلةَ ودفنتْها مع أبيها.. أمرٌ فسرَه كلُّ واحدٍ برأيِه، تلك الصغيرة الصامدة بعد موتِ أبيها ومن قبلِه أمِّها وما زالت تلعب وتلهو.. وإن أرادت البكاءَ ركضت لنجمِها الصغير والتقته خلفَ المتاريس موقع حربهما. إنها تنسى حزنَها برفقتِه.. فهناك تقفز بشعرِها القصير مثله.. فقد سادَ هدوءٌ غريب بعد حادثِ سالم.. هدوءٌ من قِبَلِ الصهاينة الذين خففوا قواتَهم المكتظة بمنطقةِ (بيت أمر) في حينِ كان الشيطانُ يتأمل كفَّه المحروق بغلٍ قفزَ من عينيْه.. ووعيد.

# موطني

دخلَ فراسُ منزلَه بابتسامةٍ واسعة وبدأ كأنه يخبئ هديةً وهو يهتفُ بحماسٍ: مرحبًا.

ومن خلفِه ظهرت روفان بتسريحةِ شعرِها الجديدة بادرتهم بابتسامةٍ مرحبةٍ وقالَتْ:

- مرحبًا.

استقبلَهما الجدُّ وفتحَ ذراعيه :

- أهلًا بالجنديين.

أسرعا يتسابقان إلى حضنِه ومن أعلى جاءَ البراقُ هاتفا بسعادة:

- أهلًا وسهلًا.. أخيرًا رأيتُكُما.

قالَتْ مواصلةً ابتسامتها:

– جئنا لنقضي اليومَ هنا كما طلبت.

قالَ بلطفٍ:

– ماذا أفعل؟ اشتقت لرؤيةِ ابني الصغير، وليس هناك حل لرؤيته سوى أن تكوني برفقتِه.

أسرعَ فراسُ وأمسكَ كفيها يصحبُها متعجلًا بلطفٍ تجاه النافذةِ المطلة على الحديقةِ الخلفيةِ للمنزل وقال:

– أبي زرعَ شجرةً باسمِ والدِكِ.

بدت الدهشةُ في عينيها وهي تتطلع للشجرةِ وأردف هو بسعادةٍ:

– سنعتني بها كما نعتني بشجرةِ نسيم.

قالَ الأبُ معترضًا بلطفٍ:

– ستعتنيان بها.

انتقلت الدهشةُ لوجهِ فراس وهتف مستفسرًا:

– أنا وروفان؟!

اقتربَ منهما وقال:

– ما رأيُكِ يا فراس لو تسكن روفان معنا؟

دبَّ الفرحُ في أوصالِها واضطربت مشاعرُ فراس فرحًا فوجدَ نفسَه يسرعُ محتضنًا أباه وهو يبكي من شدةِ السعادة بينما ارتعشت شفتاها الورديتان وفاضَتْ عيناها بالدموعِ وهي تتطلع له بنظرةٍ أعادت له ابنتَه نسيم فأشارَ لها بالاقترابِ ليحتضنَها إليه وبالفعلِ قبلت الصغيرةُ دعوتَه واشتركت مع فراسٍ بين ذراعَيْ والدِه أما الجد فقد أحسَّ بارتياحٍ ولَّدَ على شفتيْه ابتسامةً واسعة

خرجا إلى الشارعِ ولوَّحا للأبِ والجد ونظرَتْ هي إلى فراسٍ وقد شعَّتْ ذراتُ وجهِها بالفرحِ وتجددَ إحساسُها بالأملِ والسعادة التي تحلمُ بها بين عائلةِ فراس فردًا بها.. بينما أطلق فراس ضحكتَه مكملًا سعادتها بسعادةٍ أكثر تطفو من قلبِه وانطلقا ليعلنا عن بدءِ حياةٍ.. وركضوا ليخبرا الشيخَ (يس) كما استأذنا أهلَ بيتِهما الجديد كما بعينِ فراس فكان بها كبيتٍ جديدٍ وكان به كحياةٍ حلمت بها.

دومًـــــا.

# استيقظْ

في الغرقِ لا يفيد الذهبُ بقدرِ الخشب ..كذلك المحن ..تظهر المعادن..وقد يدير لك ظهرهُ من ظننته الذهب ويمسك بيدك من ظننت أنه الخشب.

سارا معًا بالطريقِ فهتفت روفان بشغف:

– سنضعُ المنظارَ والقبعةَ والنبالَ والطاووسَ الخشبي بغرفةٍ واحدة.. ستكونُ لي.

ضحك وقال:

– قال أبي ستكون لكما.

قالَتْ بسعادةٍ:

– كذلك قال رجي إن جروَنا قريبًا سيأتي.

صفَّقَ في حماسٍ وهتف :

– سنضعُ له بيتًا صغيرًا بالحديقةِ.

وأسرعَ متذكرًا:

– لا تنسَيْ النجمةَ التي أعطيتُها لكِ، كي نضعَها بجانبِ النجومِ الآخرين.

قالَتْ:

– مؤكد لن أنسى أن أحضرَ فراشًا.. النجم الصغير.. كنْتُ سأذكرُكَ، كما سأحضرُ كتبَنا.

تراجع يائسًا:

– هل سنذاكر؟

أقترحت عليه:

– ما رأيكَ أن نذهبَ للمدرسةِ غدًا؟

توقفَ يفحصُ ملامحَها وكأنه يحاول تحديدَ جديتَها فقالَتْ:

– اليهود لم يعودوا يأتون إلى منطقتِنا، لقد طردناهم، لنذهبْ.

أدارَ الأمرَ برأسِه وقال:

– أجل لقد اختفوا بعد أن أحرقناهم، لن يعودوا، فهم جبناء.

وابتسمَ مضيفًا:

– إذن حان وقتُ الذهابِ للمدرسة.

أضافت:

– كما سنطلبُ من العمّ (يس) إعطاءَكَ دروسٍ بالرياضيات.

عقدَ جبهتَه وهو يقول:

– ولكني أجيدُ الحساب.

رمقته بنظرةٍ مستنكرةٍ وهي تتمتم:

– أعلم.

استسلمَ وتطلَّعَ لها برجاءٍ مشفقًا على نفسِه فقالَتْ مواسيةً:

– سأكونُ برفقتِكَ أيضًا.

ازدهرَتْ ملامحُه فاسرع يعانق كفها بكفه هاتفًا بغبطة:

– سنكونُ معًا.

ولم يكَدْ ينتهي من قولِه حتى سمعَ صوتَ هادي فقالَ لها بضيق:

– حسنًا أسرعي قبلَ أن يأتي.

ارهفت السمع ثم همست:

– كأنه يصرخ؟

قالَ لها:

– دعكِ منه ربما هو مشتبكٌ مع أحدِهم.

قالَتْ موافقة:

– حسنًا لنسرعْ.

اكملا طريقهما ولم يلبث وان تباطأَت خطواتُه عند سماعِ صوتِ هادي مجددًا مناديًا باسمِه فزفرَ وتوقف مكانَه وهو يتمتم:

– كلما وقعَ بمشكلةٍ ينادي فراسًا.

وحاول تجاهل هتافَه ولكنه استسلمَ أخيرًا وهتف لروفان:

– حسنًا سألحقُ بكِ.

واستدارَ راكضًا حيث الصوتِ بينما توقفت هي في تساؤلٍ.

ركضَ حيث الصوتِ وفوجئ بـ(هادي) بين يدَيْ الجندي الصهيوني يحاولُ الإفلاتَ والجندي بدا متعثرًا في السيطرةِ عليه فأغمضَ عينيه في ضيقٍ وتمتمَ:

– عادوا لأرضِنا مجددًا.

وألقى (هادي) بنظرةٍ متضجرةٍ استدارَ معها عائدًا من حيث أتى، تاركًا إياه في لا مبالاةٍ وسار وقد تلاشى صوتُ هادي عن أذنيه.

ولكنه توقفَ وأغمضَ عينيه متراجعًا في ضيقٍ واستدار سريعًا إلى حيث مكانِ الصهيوني والتقطَ حجرًا وهتفَ:

– أيها الغبي..

التفتَ له الجنديُّ فألقى حجرَه.

أصابَتْ هدفَها كالعادة، ومجددًا حرره فركضَ هادي وأسرع بدورِه فراس راكضًا حتى توقفَ بالشارعِ الذي تركَ فيه روفان والتقطَ أنفاسه وعقدَت من بعيدٍ ذراعيها وهي تنتظره بنظراتِ اللوم والتساؤل.. وابتسمَ لها معتذرًا.

وهو يصيحُ بسعادةٍ:

– حررتُه.. إنها المهمةُ المائة.

بينما جاءَ الجنديُّ من ورائِه وأطلقَ رصاصتَه.

وسقط..

سالت الدماءُ من صدرِه بغزارةٍ وزاغت عيناه ولم يستطعْ رؤيةَ شيءٍ سوى روفان وهي تقفُ مصدومةً من بعيد..

خطت بثقل نحوه وكأن الأرض قيدت أقدامَها وهي تهمس غيرَ مصدقةٍ بذعر:

– فراس! فراس!!

لأولِ مرةٍ ترتعش أقدامُها وهي تقتربُ إليه في خوفٍ يأتي إليها لأولِ مرةٍ.. سقطت عندَه على ركبتيها.. وضعت رأسَه على فخديها وهمست بذعرٍ لا حدودَ له:

– فراس!

سقطَتْ دموعُه وقال باكيًا:

– أشعرُ بالألمِ يا روفان.

وازدادت بقعةُ الدماءِ في صدرِه والدموعُ من عينيه..

لفظَ متمتمًا بخفوتٍ:

– بيتُنا.. النجوم.. أنتِ...

أغلق عينيْه وارتخى جسدُه.

صمتَ.وصمتَتْ.وأصبح لعدمِ التصديقِ معنى.معنى ولد في هذه اللحظةِ، فكان جديدًا في قاموسِ الألم.

معنى كوَّنتْه تلك الموجةُ من الصمتِ المفاجئِ الذي قتلَ الضجيجَ حولها فبات الزمنُ وكأنه توقفَ عند هذه اللحظةِ مصاحبًا صفيرَ النهاية..

صفيرٌ متواصلٌ.. عالمٌ باهتٌ.. أنفاسٌ محتبسةٌ..

مالَتْ إليه.. مسحَتْ مكان دمعته وأخذت طرفَ ثيابِها كمنديلٍ جففت دماءَ صدرِه وقميصِه ثم ضمَّت معطفَه على صدرِه وأغلقته لتخفيَ جرحَه.. عدلت ياقتَه.. وربطَتْ خيطَ حذائِه وفردَتْ ساقيه وعدلت ذراعيه ووقفت تتطلعُ إليه وقالَتْ:

– استيقظْ.

توقفَ الصفيرُ وسكنَ كلُّ شيء..

نظرَتْ حولَها على الرغمِ منها وانتقلَتْ عيناها إليه سريعًا لعله يصبح مجردَ كابوسٍ فيتبدد وحدثَتْ نفسَها:

– روفان يا غبية، أنتِ من تستيقظي.

ما الذي افترسَ الأحلامَ فجأةً؟ وحشُ الواقع! فبات هناك حيرةٌ بينهما.. كنت يا حلم أجملَ والآن أتمنى أن يكونَ ما يحدث «أنت».. كن مجردَ كابوسٍ اغتابَكَ فهاجمَ جمالَ حقيقتِكَ بعقلِنا.. اسمَحْ لنا بالخروج..

أغمضَتْ عينيها طويلًا وهمسَتْ تائهةً:

– روفان استيقظي.

فتحتهما.. إنه الواقع.. ارتمت منهارةً أمامَه على ركبتيها كجبل انهارَ بغتةً.. بعيونٍ فقدت كلَّ معالمِ الحياة وتوسلَتْه راجيةً:

– استيقظْ فراس.

سالت دموعُها بغزارةٍ أكثر وشهقت باكيةً.. وقد استسلمت لحقيقتِها وبكت عائدةً لحقيقتِها كطفلةٍ وهي تهمسُ بحرقةٍ عارمةٍ غارقة بالخوفِ لأولِ مرة:

فراس..

وغمرَتْ وجهَها بصدرِه وضمَّته بكل قوةٍ وهي تنتحب بجنون:

سأمنحُكَ المنظارَ والنبالَ والقبعةَ والطاووس، سأدعُكَ تسمي الجروَ وتسبقني، سأعوضُكَ عن عقاربِكَ وسأتركُ لكَ النجمةَ الزرقاء فقط استيقظْ..

وصرخَت من أعماقِها بكلِّ وجعٍ:

فرااااس.

# قلبٌ في كرب

في كلِّ ركنٍ شربت هذه الأرضُ من دموعِ أهلِها فارتوت وتعودت وفاضَتْ بالبكاء.. ونفضَتْ ترابَها حزنًا على أجملِ من استقبلَتْهم تحتَها وحنت رأسَها خجلًا يا ليتني أستطيعُ أن أكونَ أقوى كي لا تنبشوني وتدفنوا فيَّ وتظلون أحياءً.. أحياءً لبعضِكم.. وصرخَتْ.. أيعقل! الشوكُ يظل أعلاي والوردٌ أدفِنُه تحتي! كفوا عن البكاءِ كفوا حتى لا تبل دموعُكم ترابي.. فيسهل نبشُها.

ولكنها تهدأُ بسكونٍ.. وتعتذر.

هذا قدر.

وهناك بالأعلى كان المشهد متكررًا حتى جفت القلوبُ إلا أن قلبَ أبيه مازال جريحًا منذ موتِ أختِه وهو يبكي بدموعٍ من دماء حاملًا نعشَ ابنِه الصغيرِ الباقي من زوجتِه المحبة التي فقدَها والآن فقدَ ما تبقى منها بعد نسيم، وبدا مذهولا فقد عقلة لا يستطيع التصديقَ وهو يسلم ما تبقى من قلبِه للأرضِ ويدفنه.

وبكى جدُّه بحرقة وربَّتَ عليه الشيخُ (يس) مواسيًا:

– البقاءُ لله.

بكى الشيخُ أكثرَ وصرخ بمرارة:

– العجائزُ يدفنون صغارَهم.

وراحَ يردِدُ في قهرٍ:

– العجائزُ يدفنون صغارَهم.

بكَتْ القريةُ كلُّها على موتِ جنديٍّ كان سيحررُ أرضَهم.. جنديٌّ كان يثقُ في أنه سيحررُها مهما يكن.. جندي كان قويًا شجاعًا أحبه رفاقُه فتقدمَ (عمران) من بين الرجالِ يبكي على رفيقٍ اعتاد على عراكِه ومن خلفِه سار أخواه لأول مرةٍ خلفَ فراسٍ بغضب.. بلا ركض.

بدا الحزنُ تاركًا أثرًا على الشيخِ (يس) وهو يسلم جسدَه لفراشِه في أسى أسقطَ قدرتَه على تحملِ دموعِ العجائز كما قال جد فراسٍ رحمه الله، وهناك أتت (بروج) وبدَتْ عيناها متورمتان من الدموعِ وقالَتْ قَلِقَةً:

– لقد غربَت الشمسُ ولم تعُدْ روفان.

اعتدلَ وقالَ في قلقٍ:

أ – هي ليست بالمنزل!

# لا تخفْ

بحثَ عنها في أرجاءِ البلدةِ كلِّها ولم يتركْ مكانًا حتى وصلت قدماه ليعودَ ليجلس أمام منزلِه.. وهناك أتته زوجتُه وابنتُه في قلقٍ يسألانه عنها ولكن صمتَه كان أكبرَ جوابٍ مقلقٍ، وقالَتْ بروج:

إنها الواحدةُ صباحًا، أخشى أن يكونَ أصابَها مكروهٌ بعد ما حدثَ مع فراس وفعلت أمرًا متهورًا..!

تمتمَت الأمُّ:

– الله يسترها.

قالَ الشيخُ مقهورًا:

– هل قدَّرَ لهم أن يذهبوا صغارًا..

ربتَتْ عليه بروجٌ وتنهدَ من أرجائه.

بينما كانت الثانية صباحًا.. حملَ والدُ نسيم مصباحَه وجلس يراقبُ القبور، قبورَ أطفالِه الذين غادروا بغتةً تاركين خلفَهم جرحًا عميقًا لا دواءَ له، واقتربَ أكثر وفوجئ بذلك الجسدِ المنكمشِ بجانبِ قبرِ فراس ورفعَ مصباحَه.. كانت روفان..

اختنقَ الكلامُ وشعرَ بمرارةٍ أسكتته وهو يرى الصغيرةَ تؤنسُ طفلَه في الظلامِ وقد تغلَّبَ حزنُها على خوفِها فأتت بالظلامِ بجانبِه تتحدث إليه ألا يخاف وأنها هنا بجانبِه ولن تذهبَ وتتركَه مهما شعرت بالخوفِ وعلقت نجمتَها الصغيرة على قبرِه وكذلك قبعتَهما ومنظارَهما.

تلك الأشياء التي جمعاها وتشاركا فيها وحلما بأن يضعاها ببيتِهما الصغير.. بكى الأبُ أكثر وعاد يجرُّ حزنَه وألمِه.. ولم يستطعْ أن يقاطعَ هذه البراءة والصدق بحزنِها على رفيقِها.. الذي كان قدمَها الأخرى التي كانت تسير بها، فمنذ أن عرفا المشيَ سارا معًا.. كل أمرٍ فعلاه معًا.. كل خطأٍ زيناه بأفعالِهما معًا..

هنا ركضا هربًا من الصهاينةِ واختبآ تحت طاولة العمِّ تميم.. وهنا اختلفا وسارَ خلفَها وابتسمت.. وكذلك هناك سارت تتبعُه.. وعندما اشترى لها القبعةَ واشتركا بارتدائِها، وعندما منعَه والدُه

وهرب وجاءَ إليها.. وهروبِهما من صالح وبيعِهما المياه.. والنجوم.. والكثير والكثير معًا.. كانت علاقةً أكبرَ من كلِّ العلاقاتِ التي مرَّتْ بها الإنسانيةُ، علاقةً ليس لها علاقة بالدم، كانت علاقةَ طفلين لم يتجاوزْ عمرُها الحادية عشرة ولكن ما جمعَهما معًا كان أكبرَ من كلِّ مفاهيمِ الحياة.. فباتَتْ هي لا تصدق أنه لم يعُدْ موجودًا، موتُ أمِّها ومن ثمَّ أبيها.. وجودُ رفيقِها كان عزاءَها ولكن بعد موتِ رفيقِها فأين عزاءها سوى بقائها بجوارِه تؤانس قبرَه..

ظلَّتْ على هذا لليالٍ تمنَّتْ فيها أن تصدقَ قصصَ الأشباحِ ويظهر..

لا بأسَ بأيّ شيءٍ.. فقط يعود.

# الختام.. بلا حياة

كم تغير كلُّ شيء.. كلُّ شيءٍ لم يعُدْ كما كان.. كم تغيرَ هذا الوجه.. شحوبٌ.. وحزنٌ.. وشرودٌ.. بلا حياة..

لم تدرِ كم من الوقت مرَّ.. ظنَّته سنوات لفراقِ رفيقِها.. غادرَتْ الهمةُ.. لملمت الثقةُ بالأحلامِ حقائبَها وأشارت في أسفٍ.. فكيف تستطيع البقاءَ وتلك النفسُ تجاهد وحيدةً! أبدًا لا يفوز وحيدٌ في حربٍ.. وحيدٌ منكسرُ الآمالِ.. تلك هي الهزيمة.. الوحدة.

حملَتْ حقيبتَها وسارَتْ بخطواتٍ ثقيلةٍ وملامحَ محتضرةٍ وجرت أقدامَها.. ولكنها توقفت تتطلعُ حولَها وبدت تائهةً في كلِّ الوجوهِ.. غريبةٌ لا تدري أيَّ طريقٍ يجب أن تسلكَه ودارَتْ تتطلع خلفَها لعلَّه يتبعُها ولكن..

إنَّه هناك.. رأتْه مكانَه يستلقي على الأرضِ كما تركَتْه.. ركضَتْ إليه.. تبدد.

أحسَّتْ بالخوفِ وتطلعت حولَها بعيونٍ هلعةٍ.. نزلت مكانَها وضمَّتْ ركبتيها لصدرِها وانكمشت.

مرَّ بجوارِها الكثيرون ذهابًا وإيابًا.. ما بين الإيماءات ونظراتِ الأسف.. تلك روفان الطفلة التي لم ترَ أمَّها وبحثت عن وجهٍ لتتخيلَه لها فوجدت فراسًا.. ابنة سالمِ البطل المقاوم الشجاع الذي افتقدَتْه لغيابِه فكان فراسُ حاضرًا ومن ثم استشهادِه فكان فراسُ باقيًا متمسكًا..

رفيقُها فراس..

وجهُ أمِّها ومكانُ أبيها ودفءُ كليهما وروحها.. إنه لروحُها.. عائلتُها وبيتها.. واقعُها وحلمُها.. برغمِ كلِ خسارتِها ما هُزِمَت برفقتِه.

إنه رفيقُهاجندي بلادها ...

وقد استطاع الصهاينة إخضاعها....كما الوطن...بتفريقهما ..وتاهت نفسها كيف سأحرر موطني ؟

وقد احُتللت!!

مروا ولم يدري أحد حقيقة انكماشها ...إلا حين مالت ارضًا.....

فقد فارقت الحياة.

(اليوم انتهي واقعي ..

..وغداً سأصبح قصه .. ..سيرسمونني . ,وبعد غد سيتصعبون حالي .سيضعون صورتي . ويوشمون كلمات الجزع لاجلي .ومن ثم تمر اسابيع ..سأموت مجددًا مع كل ذاكرة نسيتني .من انا؟

..روفان فراس, جهاد،أيلان , أنا محمد )

تمهل أيها العمر.ان كنت سأنسي فتمهل. لا أريد أن أكون مجرد قصه. هنا بيتي . بل اريد ان احقق الحلم.هنا نجوم تعلو غرفتي هنا لعبه القطار والسيارة رفقتي وتلك أرجوحتي.وهذه بالوناتي.وها هي كرات سلتي.

تمهل.أنني ما زلت احمل صندوق الأماني فلا بأس إن تعثرت ..تمهل.. إني سأستفيق ..

أنا لا اطمع سوي بلعبتي وحديقتي وبيتي

..تمهل أريد أن أحقق حلمي بين أحضان أسرتي...

إن العجز يولد من بطون الخذل .

.فأجهضي

يا بلادي ذكور تحت مسمي رجال.

تموت كل لحظه ورقه من شجره جنه فلسطين يحرقها جحيم الاستعمار فما بقيت سوي جذور الأمل هل تكفي يا عرب . لتنبت،

مات وسيموت ولكن فلسطين أبدا لن تموت .

أنقذوا فلسطين.

أنقذوا جنود العرب الصغار.

**تمَّتْ بحمدِ الله**